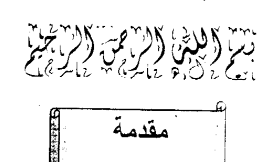
رسائل الفقهاء والزهاد ومواعظهم
إلى
الخلفاء الأمويين والعباسيين

الدكتور / محمد محمد الغرباوي
أستاذ الأدب والنقد المشارك
في جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

٢٠٠٦م



مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على الهادي إلى الصراط المستقيم ، سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ، النجوم الأعلام والأئمة الكرام ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد ..

فإن الدين النصيحة ، كما أخبرنا بذلك المعصوم – صلى الله عليه وسلم – في قوله : " الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم " ؛ ولهذا عرف العلماء هذا الواجب فوقفوا من الأمة خير موقف ناصحين راشدين ، ومعلمين هادين ، ولم يتوان الفقهاء والزهاد منهم خاصة في نصح الأمة - حكاما ومحكومين - فأرشدوا الضال، ونصحوا المتخاذل ، ولم يخشوا في الله لومة لائم .

ووقف الفقهاء والزهاد من خلفاء بني أمية وبنى العباس مواقف جادة ، فبينوا لهم طريق الحق ، وأنذروهم من مخالفة سنن الهدى والرشاد ، راجين بذلك وجه الله ورضاه .

وإنما اخترت الفقهاء والزهاد لسببين : –

أولهما –

البعد عن المهاترات السياسية والخلافات الحزبية في هذين العصرين ،لأنها درست من عدة جوانب .

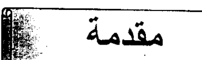
وثانيهما –

إخلاص الفقهاء والزهاد في تلك النصائح ، والابتعاد عن عرض الدنيا من مال وجاه لدى السلطان .

وجاءت هذه النصائح في صورتين : فهي إما رسائل يبعث بها الفقهاء والزهاد للخلفاء ، يرسمون فيها الطريق السوي ، ويطلبون منهم اتباعه ، وإما نصائح وعظية شفهية يبثها الفقهاء والزهاد بين يدي الخلفاء ، بعد طلب الخلفاء ذلك .

وجاءت أقوال الفقهاء والزهاد ـ مكتوبة ومنطوقة ـ في قطع أدبية رائعة ؛ تحمل فى طياتها أفكار علماء أفذاذ ، زهاد ورعين ، وتعبر عن عقول واعية مستنيرة .

وقمت بتقسيم الدراسة إلى مقدمة وثلاثة فصول على النحو التالي :



الفصل الأول : مع العلماء والحكام .

المبحث الأول : فى العلم والعلماء .
المبحث الثانى : مواقف الفقهاء والزهاد من الخلفاء.

الفصل الثانى : رسائل الفقهاء والزهاد للخلفاء الأمويين والعباسيين .

المبحث الأول : موضوعات رسائل الفقهاء والزهاد .
المبحث الثانى : الجوانب الفنية فى رسائل الفقهاء والزهاد .

الفصل الثالث : المواعظ الشفهية .

المبحث الأول : موضوعات المواعظ .
المبحث الثانى : الجوانب الفنية فى المواعظ .

ولعلنى أكون قد كشفت اللثام عن بعض أدوار الفقهاء والزهاد فى هذين العصرين ، وما قدموه فى خدمة الدين والدنيا ؛ لتكون لبنة فى هذا المجال ، فنر دراسات أخرى فى عصور مختلفة حتى تكتمل الصورة المشرقة لفقهائنا وعلمائنا ومواقفهم الجادة المثمرة فى كل العصور .

والله أسأل أن يوفقنا إلى طريق الهدى والرشاد إنه نعم المولى ونعم النصير

الفصل الأول

مع العلماء والحكام

المبحث الأول

فى العلم والعلماء

فضل العلم وأقسامه :

لايشك عاقل فى فضل العلم وقيمته ، فبه يهتدى الإنسان لطريق الخير والرشاد ، وبه يستطيع إعمار الكون باستخدام خاماته وطاقاته . ويزداد قدر العلم بمقدار حاجة الإنسان إليه ، ولهذا قسم العلماء العلم أقساما ، وجعلوا أفضلها علوم الشريعة ، يقول أبو الوليد الباجى فى وصيته لأولاده ، بعد أن ذكر فضل العلم :

" وأفضل العلوم علم الشريعة ، وأفضل ذلك لمن وفق وأن يجود قراءة القرآن ، ويحفظ حديث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ويعرف صحيحه من سقيمه ، ثم يقرأ أصول الفقه فيتفقه فى الكتاب والسنة ، ثم يقرأ كلام الفقهاء.وما نقل من المسائل عن العلماء ، ويدرب فى طرق النظر وتصحيح الأدلة والحجج . فهذه الغاية القصوى والدرجة العليا " (١) .

واهتم المؤلفون العلماء بالعلم والعلماء فصنفوا فيهما كثيرا من الكتب ، وحثوا فيها على متابعة العلم والتزود منه ، وتلك الكتب أكثر من أن تحصى ، فمن هذه الكتب : " آداب الطلب الشوكانى ، وأخلاق العلماء للآجرى ،والرسالة المفصلة لأحكام المتعلمين للقابسى ، وفضل علم السلف على الخلف لابن رجب ، والحث على طلب العلم للعسكرى ، وآداب العلماء والمتعلمين للحسين بن منصور ، ورسائل الإصلاح لمحمد الخضر حسين ، وغيرها كثير " (٢) .

---

(١) وصية الشيخ الفقيه الحافظ أبى الوليد الباجى الأندلسى ص ٣٣ ـ تحقيق / عبد اللطيف بن محمد الجيلانى ـ مكتبة أضواء السلف ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨م .

(٢) حلية طالب العلم ـ بكر عبد الله أبوزيد ص ٨ ـ هامش (١) ـ دار ابن الجوزى ـ المملكة العربية السعودية ـ الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م

واتفق العلماء على تقسيم العلم إلى علم نافع ، وعلم غير نافع ، وجعلوا لكل علم علامات يعرف بها صاحبه ، يقول ابن رجب فى ذلك : " فأصل العلم (العلم) بالله الذى يوجب خشيته ومحبته ، والقرب منه والأنس به والشوق إليه ، ثم يتلوه العلم بأحكام الله ، وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد . فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه نافعا ، وحصل له العلم النافع والقلب الخاشع والنفس القانعة والدعاء المسموع " (١)

ويضع ابن رجب علامات يعرف بها صاحب هذا العلم ، فيقول : " ومن علامات العلم النافع أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا ، وأعظمها الرياسة والشهرة والمدح .... ومن علاماته أن صاحبه لايدعى العلم ، ولايفخر به على أحد ، ولا ينسب غيره إلى الجهل ، إلا من خالف السنة ، وأهلها ، فإنه يتكلم فيه غضبا لله لاغضبا لنفسه ، ولاقصدا لرفعتها على أحد"(٢).

ويعود ابن رجب فيصف صاحب العلم غير النافع بصفات سيئة ، تخالف الفطرة الصحيحة ، والنهج القويم ، فيقول :

" ومن فاته هذا العلم النافع وقع فى الأربع التى استعاذ منها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصار علمه وبالا عليه ، فلم ينتفع به ؛ لأنه لم يخشع قلبه لربه ، ولم تشبع نفسه من الدنيا بل ازداد حرصا عليها ولها طلبا ، ولم يسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه ، وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه " (٣).

ويشير ابن رجب إلى العاقبة الوخيمة التى تلحق صاحب هذا العلم غير النافع ، وما تكسبه من صفات الدمار والوبال عليه ، فيقول : " وعلامة هذا العلم الذى لاينفع أن يكسب صاحبه الزهو والفخر والخيلاء ، وطلب العلو والرفعة فى الدنيا ، والمنافسة فيها ، وطلب مباهات العلماء ، ومماراة السفهاء ، وصرف وجوه الناس إليه ... وربما ادعى بعض أصحاب هذه .

---

(١) فضل علم السلف على الخلف ـ للحافظ أبى الفرج زين الدين عبد الرحمن بن الشيخ أحمد بن رجب الحنبلى البغدادى ص ٣٦ ـ تحقيق / بشير محمد عيون ـ مكتبة دار البيان ـ دمشق بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .

(٢) فضل علم السلف على الخلق ص ٣٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦ ، ٣٧ .

العلوم معرفة الله و طلبه و الإعراض عما سواه و ليس غرضهم بذلك إلا طلب التقدم في قلوب الناس من الملوك و غيرهم ، و إحسان ظنهم بهم ، و كثره اتباعهم و التعظم بذلك على الناس ... و من علامات ذلك عدم قبول الحق و الانقياد إليه ، و التكبر على من يقول الحق ، خصوصا إن كان دونهم في أعين الناس " (١) .

و يتفق ابن عبد البر و ابن القيم على أن من العلم ماهو فرض عين ، و منه ماهو فرض كفاية و يقسم ابن القيم العلم الذى هو فرض عين أربعة أقسام علم أصول الإيمان الخمسة و علم شرائع الإسلام و علم المحرمات الخمسة و علم أحكام المعاشرة و المعاملة التي تحصل بينه و بين الناس خصوصا و عموما أما العلم الذى يجب هو فرض كفاية فيرى ابن القيم أنه لا يعلم فيه ضابطا صحيحا لأن كل أحد يدخل فى ذلك ما يظنه فرضا أي أن كل علم تتوقف معرفة العلوم التي هي فرض عين عليه فهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به .

أما ابن عبد البر فيرى أن سائر العلم و طلبه و التفقه فيه و تعليم الناس و فتواهم به في مصالح دينهم فهو فرض على الكفاية (٢) .

و يعلق الدكتور رشاد سالم على ذلك التقسيم فيقول :

" و على ذلك فإن كل علم دينى أو دنيوي لا يستغني عنه جماعة المسلمين فإن تعلمه يكون فرض كفاية على الأمة الإسلامية لأن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب " (٣) .

---

(١)فضل علم السلف على الخلق ص ٣٧و٣٨

(٢)انظر ذلك بالتفصيل فى المدخل إلى الثقافة الإسلامية د محمد رشاد سالم ص١٢٥ إلى ١٢٧ دار القلم الكويت- الطبعة السادسة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م

(٣) المدخل إلى الثقافة الإسلامية ص ١٢٧

مكانة العلماء .

و كما اهتم العلماء و المؤلفون بالعلم و أقسامه اهتموا كذلك بالعلماء فعرفوا مكانتهم . و صنفوا الكتب الكثيرة في صفاتهم و أخلاقهم و أقدارهم ، و رسموا الصفات المستحبة فيهم ؛ كما أنهم قسموا العلماء أقساما حسب عدلهم وجورهم ، وأهابوا بالعلماء أن يلتزموا الجادة ، و أن لا يخشوا في الحق لومة لائم .

يقول أحد العلماء و هو أبو الربيع الكلاعى (ت ٦٣٤هـ) :
"ان العلماء هم آباؤنا الأقدمون و هداتنا المتقون بأنوارهم "

نسرى فنبصر و نستبصر ، وإلى غايتهم نجرى ، فطورا نصل و أطوارا نقصر ، فلهم دوننا قصب السبق ، و لهم علينا في كل الأحوال أعظم الحق ، إذا أصابوا اعتمدناه ، و إذا أخطأوا استفدنا ، و إذا أفادوا استمددنا ، فجزاهم الله عنا أفضل الجزاء ووفقنا لتوفية حقوق الأئمة و العلماء " (١) .

و يخص الكلاعى علماء الدين بالرعاية و الثناء ، فيقول : " فعلماء الدين عامة عرفوا عند المسلمين بترفعهم - إلا فيما ندر - عن مديح السلاطين و التهالك فى اطرائهم بخلاق حال غيرهم يقصد الأدباء و الكتاب " (٢) .

و عرف الحكام منزلة العلماء المسلمين الأقدمين فأنزلوهم المنزلة التي يستحقونها . و لم يحتل العلماء هذه المنزلة لدى الحكام " إلا لما امتازوا به من علم و خلق و أمانة ، و زهد و ذلك لتمسكهم بالقيم التى كانوا يكتبونها و يعبرون عنها ، فلقد كانت أقوالهم معبرة تماما عن أفعالهم ، كما كانت أفعالهم ترجمه حقيقية لكل ما كانوا يقولون "(٣) .

---

(١) الاكتفاء فى مغازى رسول الله و الثلاثة الخلفاء للكلاعى ٢٦٩/١ نقلا عن : جهود علماء الأندلس فى الصراع مع النصارى خلال عصرى المرابطين و الموحدين ٤٨٣هـ/١٠٩٠م-٦٤٠هـ/١٢٤٢م د/محمد بن ابراهيم بن صالح الحسين أبا الخيل -دار أصداء المجتمع للنشر و التوزيع -السعودية - الطبعة الاولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

(٢) ادب الفقهاء عن عبد الله كنون -نقلا عن جهود علماء الأندلس ص ١٩٣ هامش (١)

(٣) البحث العلمى عند المسلمين بين مسرات الماضى ومعوقات الحاضر - د/محمد عبد الحليم مرسى ص ١٠٢ -دار عالم الكتب -الرياض - الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م

و أحس العلماء أنفسهم بمكانتهم فاعتزوا بها و لم يتهافتوا على الحكام و لقد "جاء وقت على بلاد المسلمين توارى فيه العلماء من واجهة المجتمع و اختفوا من التأثير في حياة الأمة ، و ماكان ذلك إلا لأن الحكام والمسئولين الكبار لم يعرفوا لهؤلاء العلماء أقدارهم ولم يستشيروهم في أمور أمتهم ومستقبلها ؛ فكان أن احترم هؤلاء أنفسهم وتواروا بعيدا إلا قلة منهم آثرت أن تركب الموجة، سائرة مع من قالوا بتفضيل "أهل الثقة "على "أهل الخبرة" وكانت النتيجة وبالا على الجميع للأسف الشديد " (١) .

ولم يكن العلماء الحقيقيون يهابون في الحق لومة لائم ، فهم يعتزون بعلمهم . ويطلبون من متعلميهم احترام العلم و أهله مهما بلغت درجة المتعلم ، قال قائل : " كنت عند شريك فأتاه بعض أولاد المهدى فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه وأقبل علينا ، ثم عاد الأمير لمثل ذلك وقال : أتستخف بأولاد الخلفاء ؟ قال شريك : " لا ، ولكن العلم أجل عند الله تعالى من أن أضعه ، فجثا (الأمير) على ركبتيه ، قال شريك : هكذا يطلب العلم " (٢) .

وكما قسم العلماء العلوم أقساما وفضلوا بعضها على بعض ، قسّموا كذلك العلماء وفضلوا البعض على الآخر ، يقول ابن رجب في ذلك : " وكان السلف يقولون : إن العلماء ثلاثة : عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله وليس بعالم بأمره ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، و أكملهم الأول وهو الذى يخشى الله ويعرف أحكامه " (٣) .

و ينعى ابن رجب على العلماء المنافقين الذين يتباهون بعلمهم ، فيقول : " وفى الجملة ففى هذه الأزمان الفاسدة إما أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون عالما عند الله ، أو لا يرضى إلا بأن يكون عند أهل الزمان عالما . فإن رضى بالأول فليكتف بعلم الله فيه ... ومن لم يرض إلا بأن يكون عالما عند الناس دخل في قوله (صلى الله عليه وسلم) : من طلب العلم ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يصرف إليه وجوه الناس ؛ فليتبوأ مقعده من النار " (٤) .

---

(١) البحث العلمي عند المسلمين . د / محمد عبد الحليم مرسى ص ١٠٢ .
(٢) مالك بن أنس إمام دار الهجرة ـ عبد الحليم الجندى ص ٢٥٦ دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م .
(٣) فضل علم السلف على الخلف ص ٣٦
(٤) المصدر نفسه ص ٤٢ .

ويقسم الإمام الغزالى العلماء قسمين : علماء دين ، وعلماء دنيا ، يقول :
" وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول ، وملازم صفو الدين ، ومواظب على سمت علماء السلف ، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا " (١) .

ويصف الغزالى علماء الدنيا ، فيقول : " فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء و إقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم فاشرأبوا بطلب العلم توصلا إلى نيل العز ، ودرك الجاه من قبل الولاة ، وتعرفوا إليهم ، وطلبوا الولايات والصلات منهم . فمنهم من أنجح ، والمنجح لم يخل من ذل القلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم إلا من وفقه الله تعالى فى كل عصر من علماء دين الله " (٢) .

لقد كان هذا التهافت فى عصر الإمام الغزالى مما أحزنه وأقلقه ، فماذا لو رأى وسمع بما حدث فى العصور التالية ، والله المستعان .

ويعلق أحد العلماء على نص الإمام الغزالى ، فيقول :

" لقد صور الإمام الغزالى - رحمه الله - واقع العلماء بعد أن غدت الدنيا مطلبهم ، وصار الدين الطريق الوحيد الموصل إلى أبواب الولاة ، كما أصبحت الرغبة فى كسب ودهم هى التى تدفع فئات ممن تزيوا بزى العلماء إلى طلب العلم " (٣) .

---

(١) إحياء علوم الدين ، للإمام أبى حامد محمد الغزالى ١ / ٤١ - تحقيق / أبى حفص سيد إبراهيم صادق بن عمران - دار الحديث - القاهرة - ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م .
(٢) إحياء علوم الدين ١ / ٤١
(٣) أدب الاختلاف فى الإسلام . د/ طه جابر فياض العلوانى ص (٢) - نشر وتوزيع الدار العالمية للكتاب الإسلامى - الرياض - الطبعة الرابعة ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م .

ولـم يسكت العلمـاء المخلصـون عن فضـح هؤلاء المنتسبين للعلـم ، المتكسبين بالـتقرب بـه لـذوى السـلطان والجـاه ؛ فوضـعوا صـفات للعـالم الحقـيقى ، مـنها الإخـلاص والأمانـة فـى نشـر علمـه ، والعمـل بـه ، وفـى ذلـك يقـول الإمـام محمـد الخضر حسين : " فلاح الأمـة فـى صلاح أعمالهـا ، وصـلاح أعمالهـا فـى صحة علومهـا ، وصحـة علومهـا أن يكـون رجالهـا أمنـاء فيما يروون أو يصفون ، فمن تحدث فـى العلـم بغير أمانـة فقد مس العلـم بقرحة ، ووضع فـى سبيل فلاح الأمة حجر عثرة " (١) .

ولـم تعدم الأمـة الإسـلامية هؤلاء الرجال المخلصين فـى كل زمـان ومكان ، فعن سفيان رحمـه الله تعالـى ـ أنـه قال :

" كنت أوتيت فهم القرآن ، فلما قبلت الصرة سلبته " (٢) .

وعن عمر بن ذر أنـه قال لوالده:" يا أبى ، مالك إذا وعظت النـاس أخذهم البكاء، وإذا وعظهم غيرك لا يبكون ؟

قال : يابنى ، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة " (٣) .

ويضـرب الشـيخ / بكـر أبوزيـد المـثل بـالإخلاص فـى العصـر الحديـث بالشـيخ الشـنقيطى ـ رحمـه الله عليه ـ يقول : " وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي المتوفى فـى(١٧ / ١٢ / ١٣٩٣هـ) ـ رحمـه الله تعالـى متقللا من الدنيا ، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملـة الورقية ، وقد شـافهني بقولـه : جئت من الـبلاد ـ شنقيط ـ و معي كنز قل أن يوجد عند أحد ، وهو (القناعة) ولو أردت المناصب لعرفت الطريق إلـيها ولكنـى لا أوثـر الدنـيا علـى الآخـرة ، ولا أبـذل العلـم لنـيل المآرب الدنيوية " (٤) .

---

(١) رسائل الإصلاح ـ الشيخ : محمد الخضر حسين ص ٧٠ ـ المطبعة التعاونية بدمشق ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م .
(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٩ ـ نقلا عن : حلية طالب العلم ص ١٠ .
(٣) العقد الفريد نقلا عن : حلية طالب العلم ص ١١ .
(٤) حلية طالب العلم ص ١٧ .

وفى مقابل هذا الصنف المخلص الأمين ، وجد صنف آخر منافق فى علمه ، غاش فى نصحه ، لا يرجو بعمله سوى التزلف والتقرب من ذوى الجاه والسلطان ، يقول الشيخ / الخضرى حسين فى هؤلاء : " اندس بين هؤلاء الأمناء أشخاص يتشابهون فى الاستخفاف بصدق اللهجة ، ويختلفون فى الأعراض التى دعتهم إلى هذا الاستخفاف ، فمنهم الجاهل الذى يحسب أن من طرق الاحسان إلى الدين وضع أحاديث للترغيب فى بعض ما ندب إليه من أعمال صالحة ، كما وضع نوح بن أبى مريم أحاديث فى فضل سور القرآن ، وقال : "رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن إسحاق فوضعت هذه الأحاديث حسبة . ومنهم المغلوب على رشده ، يضع الحديث لنحو تأييد مذهب أو إصابة عرض زائل ، كأن يصنع حديثا يوافق هوى ذى سلطان ليزداد عنده حظوة " (١) .

وقد مثل الشيخ الخضرى للصنف الأخير بغياث بن إبراهيم ، الذى " رأى المهدى يلعب بالحمام ، فتصرف فى حديث (لاسبق إلا فى نصل أو خف أو حافر) فزاد فيه (أو جناح وقد شاء الله تعالى أن ينتبه المهدى لهذه الخيانة ، فأنب غياثا وترك الحمام وأمر بذبحها " (٢) .

وكلما تعزز العلماء كلما ارتفعت مكانتهم فى الدنيا والآخرة ، قال وهب بن منبه لعطاء الخراسانى : " كان العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم ؛ فكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة فى علمهم ، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم ؛ رغبة فى دنياهم ، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا فى علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم ؛ فإياك وأبواب السلاطين فإن عند أبوابهم فتنا كمبارك الإبل لا تصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك مثله " (٣) .

---

(١) ، (٢) رسائل الإصلاح ص ٧٠ ، ٧١ .
(٣) أخلاق العلماء ، لأبى بكر بن الحسين بن عبد الله الآجرى ص ٦٧ ـ دار الكاتب العربى (ب . ت) .

لكل هذا حاول كثير من الفقهاء والزهاد الابتعاد عن أبواب السلاطين ، ورفض هداياهم ، وآثروا العمل بأيديهم ، فمنهم الحسن بن عبد الله المرزباني النحوي ، وكان قاضيا زاهدا ورعا ، لم يأخذ على الحكم أجرا، إنما كان يأكل من كتب يمينه، فكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشرة دراهم تكون بقدر مؤونته ثم يخرج إلى مجلسه . وكان أبو الفتوح أسعد بن أبي الفضائل محمد بن خلف العجلي فقيها فاضلا موصوفا بالعلم والزهد ، مشهورا بالعبادة والنسك والقناعة لايأكل إلا من كسب يده ، وكان يورق ويبيع ما يتقوت به (١) :

العلماء وتولية القضاء

اختلف العلماء في حكم قبول القضاء وتركه وفي أيهما أفضل ، فرأى جمهور العلماء أن الترك أفضل ، ورأى بعضهم أن القبول أفضل ، ولكل وجهته المرجحة لرأيه (٢) .

وعلى كل حال فقد حفظ لنا التاريخ كثيرا من أسماء الفقهاء الذين امتنعوا عن القضاء – مهما كانت العاقبة – وكان كثير من العلماء الأتقياء يأبون القضاء ويرفضونه " بتصميم يخشون أن يعترضهم في التنفيذ ما لاطاقة لهم بدفعه ، أو يخشون الزلل عند النظر في بعض النوازل وتعرف أحكامها .... ومنهم من يقبلها بعد التهديد البالغ ، مثل عيسى بن مسكين أحد الفقهاء بالقيروان .... فتمنع حتى أخذوا (الحاكم والحاشية) بمجامع ثيابه وقربوا السيف من نحره ، فتقدم لها بعد أمر خطير " (٣) .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ٨ / ١٤٦ وما بعدها ، ١ / ١٨٨ ـ نقلا عن :
المكتبات في الإسلام – نشأتها وتطورها ومصادرها – د / محمد ماهر حمادة ص ١٨٠ – مؤسسة الرسالة بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م .
(٢) انظر ذلك بالتفصيل في : الفتوى والقضاء أمانة ونزاهة وتقوى ـ الشيخ خضر العبيدي ص ٥٥ وما بعدها ـ دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ط ١ ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م .
(٣) رسائل الإصلاح ص ٨٦ .

ومنهم أبو على الصدفى ، فقد قلد قضاء مرسية على كره منه سنة ٥٠٦ ولكنه لم يلبث أن استعفى منه فلم يعف ، فتوارى عن الأنظار عدة شهور من آخر سنة ٥٠٧ هـ .

و أوائل السنة التالية حتى أعفى من ذلك المنصب . ولما طلب منه أن يلى القضاء فى إشبيلية تمنع وأبى ، واجتهد فى نشر العلم فى أماكن كثيرة إلى أن قتل فى معركة مع النصارى فى ربيع الأول سنة ٥١٤ هـ (١) .

ومن هؤلاء ، " برهان الدين بن الخطيب بن جماعة أحد قضاة مصر ، عارضه محب الدين ناظر الجيش فى قضية فقال : لا أرضى أن أكون تحت الحجر ، وصرف أتباعه ، وصرح بعزل نفسه وأغلق بابه ؛ فبلغ أمره الملك الأشرف فانزعج ومازال يسترضيه حتى قبل ، واشترط أشياء تلقاها منه بالإجابة .... وقد فعل ذلك لأنه من القضاة العادلين الذين يرمون بالمنصب فى وجه الدولة إذا أخذ بعض رجالها يتدخل فيما يرفع إليه من خصومات " (٢) .

وكان للإمام سفيان الثورى موقف خاص من القضاء ، فكما تشدد فى العزلة والابتعاد عن السلاطين ، تشدد كذلك فى الابتعاد عن منصب القضاء ، بل دعا إلى مقاطعة القضاة وعدم السؤال عنهم والدعاء لهم خوفا من إعانتهم على الظلم ، فقال لعثمان بن زائدة : " يا عثمان ، لا تجالس القاضى ، إذا قلت له : عافاك الله فهو يرى أنك رضيت عمله ، وإذا قلت له :

" جزاك الله خيرا ، فما بقى من الثناء ؟ ! " (٣) .

---

(١) انظر جهود علماء الأندلس ص ٧٦ ، ٨١ .

(٢) رسائل الإصلاح ص ٨٥ (بتصرف يسير) .

(٣) الورع ، أحمد بن حنبل ص ٥٧ ـ نقلا عن : الإمام سفيان بن سعيد الثورى د / عصام محمد الحاج على ص ١٦٢ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م .

و أنكر الثورى على شريك القاضى توليه قضاء الكوفة ، ولما لقيه بعدها قال له: " يا أبا عبد الله ، بعد الإسلام والفقه والخير ، تلى القضاء وصرت قاضيا ؟ فقال له شريك : يا أبا عبد الله ، لابد للناس من قاض ، فقال سفيان : يا أبا عبد الله ، لابد للناس من شرطى ... وبقى الثورى مقاطعا لشريك حتى آخر حياته ، وعندما التقى به لآخر مرة ، قال له : أى عذر لك حيث كان الشرط يحفظونك اليوم ؟ قال شريك : يا أبا عبد الله ، أكلمك ، فقال : ما كان الله ليرانى وأنا أكلمك أو تتوب. ثم وثب فلم يكلمه حتى مات. وكان إذا ذكره قال:أى رجل كان لو لم يفسدوه " (١).

و يروى أن شريكا ندم فى آخر عمره على توليه القضاء ، فكأنه " شعر بخطورة توليه القضاء ، وكأنه ندم على ما قام به بعد أن أدرك أنه لوث دينه بهذا المنصب ، وقد عبر عن ذلك عندما ذهب إلى الصيرفي ليأخذ رزقه ، فضايقه فى النقد فقال له الصيرفي : إنك لم تبع به بزا ، فقال شريك : بلى ! والله بعت به أكبر من البز، لقد بعت به دينى " (٢) .

ولئن صح هذا الخبر ، ليكونن دليلا على الفساد الذى يلحق العلماء ـ فى كثير من الأحيان ـ بسبب توليهم المناصب لأنها لا تخلو من محاباة على حساب الدين. وابتعاد عن جادة الصواب ! .

ولم يقبل الإمام سفيان الثورى هذا المنصب ، وإنما كان يفر منه فى زمن بنى العباس ، ولم يزل خلفاء بنى العباس يلاحقونه ، وهو يعتذر عن قبوله بحجج وأعذار مختلفة ؛ كى لايلوث زهده بهذا المنصب الشائك ، ولقد عرض عليه هذا المنصب مرارا ، كانت إحداها " فى زمن المهدى بن المنصور ، فجعل يختلق الأعذار ليفر منه ، حدث عن ذلك القعقاع بن الحكم قال : كنت عند المهدى وأتى بسفيان الثورى ، فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ، ولم يسلم بالخلافة ، والربيع الحاجب قائم على رأسه متكئا على سيفه يرقب أمره ،

---

(١) الإمام سفيان الثورى ص ١٦٢ ، ١٦٣ ـ نقلا عن مصادر مختلفة .
(٢) الإمام سفيان الثوزى ص ١٦٣ ـ نقلا عن مروج الذهب ٣ / ٣١٠ .

فاقبل المهدى بوجه طلق ، وقال له :

" يا سفيان ، تفر منا ههنا ، وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن . فما تخشى أن نحكم فيك بهوانا ، فقال سفيان : إن تحكم فى يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل ، فقال الربيع : يا أمير المؤمنين ، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ ايذن لى أن أضرب عنقه ، فقال المهدى : اسكت ويلك ! وهل يريد هذا وامثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم ؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة ، على أن لا يعترض عليه فى حكم ، فكتب عهده ودفع إليه ، فأخذه وخرج ورمى به فى دجلة وهرب ، فطلب فى كل بلد فلم يوجد " (١) .

ففى هذه القصة ثلاثة امور : أولها ــ علو قدر العابد الزاهد سفيان الثورى ، ونفوره من تلك المناصب الملوثة لزهده ــ خصوصا فى زمن الظلم والفساد . وثانيها ــ شجاعته وجرأته فى مجابهة الباطل ، والرد على الخليفة بالحق جهرا وصراحة دون مواربة . وثالثها ــ دور بطانة السوء فى محاولة الإيقاع بالصالحين العاملين من خلال تزيين الباطل وتحسينه فى أعين الحكام بدلا من تهدئة الموقف ومحاولة ترضية السلطان عنهم . ولاحول ولاقوة إلا بالله ! .

وعلى أية حال ، فلم يترك الفقهاء أمر الفتوى والقضاء دون قيود ؛ وإنما جعلوا للفتوى آدابا وحدودا شرعية ، و أوجبوا على المفتى والقاضى الالتزام بها ، منها : " ألا يميل إلى الأغنياء وذوى النفوذ ويقدم أجوبتهم على الفقراء ، و ألا يجيب عن أسئلة فى حق ذوى النفوذ ،وألا يفتى بقول مهجور لمنفعة يرجوها"(٢).

وبناء على ذلك نقرر أن القضاء ليس شرا كله ، وقد قال ابن فرحون فى " تبصرة الحكام " : " و اعلم أن كل ما جاء من الأحاديث التى فيها تخويف ووعيد لمن تونى القضاء ، فإنما هى فى حق قضاة الجور العلماء ، أو الجهال الذين يدخلون أنفسهم فى المنصب بغير علم، ففى هذين الصنفين جاءالوعيد"(٣).

---

(١) البحر الرائق ، لابن نجيم المصرى الحنفى ٦ / ٢٩٢ ـ نقلا عن : الفتوى والقضاء أمانة ونزاهة وتقوى ص ٤٦ ، ٤٧ .
(٢) الإمام سفيان الثورى ص ١٦٥ ـ نقلا عن : مروج الذهب ٣ / ٣٢٢ ، وفيات الأعيان ٢ / ٣٩٠ .
(٣) الإمام الزهرى عالم الحجاز والشام ـ محمد محمد حسن شراب ص ٣١٥ ، ٣١٦ ـ دار القلم دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م .

ويقصد بالوعيد الذى جاء فى الحديث الذى أخرجه أبو داوود والترمذى عن أبى هريرة :

" من ولى القضاء أو جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين "

و أما فرار كثير من العلماء والزهاد من القضاء فمحمول على أنهم لم يغفلوا ذلك لأنه مسقط للعدالة وداعية إلى الحرج " وإنما فعلوا ذلك بداعى الورع والزهد ، وتحرزهم من أن يلقوا الله — عز وجل — وعليهم تبعات من أمور الناس " (٣) .

---

(٣) الإمام الزهرى عالم الحجاز والشام — محمد محمد حسن شراب ص ٣١٥ ، ٣١٦ — دار القلم دمشق — الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م .

المبحث الثانى

مواقف الفقهاء والزهاد من الخلفاء .

الحاكم والمحكوم قطبان تدور عليهما الدولة ، إذ لايتصور وجود أحدهما بدون الآخر ، فالحاكم برعيته والرعية بحاكمها ، كلاهما يصنع الآخر ويرتبط به ولكل قطب من هذين القطبين حقوق وواجبات تجاه القطب الثانى ، نظمها الإسلام افضل نظام ووضع لها الأسس والقوانين التى لو التزم بهما كلاهما لصلحت الحياة ، واستقرت الأمور .

وقد عرف فقهاؤنا وزهادنا هذه الحقوق ، وعملوا بها ؛ لأنهم أكثر الناس فهما للحياة ، وأشدهم وعيابما يدور فيها ، فهم ينظرون للأمور بمقاييس صحيحة ، تحفظ للحياة دورتها ، وتحفظ للناس توازنهم بداخلها ، ولذا كان واجبهم ثقيلا تجاه مجتمعهم ــ حكاما ومحكومين ــ إذا إن واجبهم تجاه المحكومين يتمثل فى النصيحة لهم وإصدار الفتاوى السديدة التى تؤهلهم دينيا وتدخلهم فى عداد المسلمين المتقين إذا هم ساروا على هذه الفتاوى والتزموا بها ، كما أن واجبهم تجاه حكامهم يتمثل فى إسداء النصح لهم ، وألا يبخلوا عليهم بالمشورة فى كل أمر يتعلق بالدين والدنيا ، و ألا يهابوهم أو ينافقوهم فى الحق ، طمعا فى ربح عاجل أو منصب زائل .

ووضع العلماء أسسا لصحبة الحكام ونصحهم حتى يتمكن العالم من أداء هذا الدور الخطير ، ونجد هذا مترددا فى كتب التراث تحت كلمة " السلطان " والدخول على السلاطين " ، وعطايا السلطان " وغيرها ، ولهذه اللفظة مدلول فى القديم غير مدلولها فى الحديث فهى " فى كتابات المتقدمين وفى جملتهم " ابن المقفع " لغاية عصر " هارون الرشيد " لا تدل على المعنى المعروف فى أيامنا هذه . بل تدل فقط على السلطة وولاة أمور الناس وتدبير أمور الجمهور . ثم أطلقوها على كل إنسان يتولى شيئا من أعمال الحكومة . فهى عند المتقدمين بمعنى الوالى والحاكم وصاحب الأمر . وهرون الرشيد هو أول من أعطى لقب السلطان لوزيره جعفر " (١) .

---

(١) الأدب الكبير ، لابن المقفع ص ٢١ تعليق الأستاذ / أحمد زكى باشا ص ٢١ هامش رقم (١) ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤م .

واكثر العلماء من الحديث حول " صحبة السلطان " وما يجب على العالم تجاه ذلك من الابتعاد عنها قدر المستطاع ؛ لما فيها من الأذى وعدم أمن الغدر ، يقول ابن المقفع :

" إن وجدت عن السلطان وصحبته غنى ، فأغن عنهما نفسك ، واعتزلهما جهدك . فإن من يأخذ عمل السلطان بحقه ، يحل بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة . ومن لا يأخذه بحقه ، يحتمل الفضيحة فى الدنيا والوزر فى الآخرة ... إنك لاتأمن إن صدقتهم غضبهم ، وإن كذبتهم سخطهم ، وإن سخطوا عليك نسيت سخط الله تعالى - وإن رضوا عنك تكلفت لرضاهم مالا تطيق " (١) .

ويعود ابن المقفع فيوقع المصاحب للسلطان فى حيرة فى جميع أموره وخصوصا السلطان الجائر - ، فيقول :

" إن ابتليت بصحبة وال لا يريد صلاح رعيته ، فاعلم أنك قد خيرت بين خلتين ليس منهما خيار : إما الميل مع الوالى على الرعية ، وهذا هلاك الدين . وإما الميل مع الرعية على الوالى ، وهذا هلاك الدنيا . ولاحيلة لك إلا الموت أو الهرب " (٢) .

ويقترب أحد علماء الهند من ابن المقفع فى هذا الرأى ، غير أنه يزيد عليه التفصيل والتشبيه لحالات الحيرة ، يقول : " صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطار ، وإنما تشبه بالجبل الوعر ، فيه السباع العادية ، والثمار الطيبة ؛ فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشد ؛ وليس يتكافأ خير السلطان وشره ؛ لأن خير السلطان لايعدو مزيد الحال ، وشر السلطان يزيل الحال ويتلف النفس التى لها طلب المزيد ؛ ولا خير فى الشيء الذى سلامته مال وجاه ، وفى نكبته الجائحة والتلف " (٣) .

---

(١) الأدب الكبير ص ٦٥ : ٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .
(٣) كتاب الأمالى ، لأبى على القالى ٢ / ١٢١ - مراجعة لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م .

وينصح أبو الوليد الباجى ولديه بعدم صحبة السلطان ـ ما أمكن ـ لما فيها من شرور وآثام ، ولكنه يضع لهما الأساس الصحيح إذا ما قدر لهما صحبته ، يقول الباجى فى وصيته :

" واجتنبا صحبة السلطان ما استطعتما ، وتحريا البعد منه ما أمكنكما ، فإن الذل مع البعد عنه أفضل من العز مع القرب منه . فإن صاحب السلطان خائف لا يأمن، و خائن لا يؤمن ، ومسيء إن أحسن يخاف منه ويخاف بسببه ، ويتهمه الناس من أجله ، إن قرب فتن ، وإن أبعد أحزن ، يحسدك الصديق على رضاه إذا رضى ، ويتبرأ منك ولدك ووالدك إذا سخط .... فإن امتحن أحدكما بصحبته ، أو دعته إلى ذلك ضرورة فليقلل من المال والحال ، ولا يغتب عنده أحدا ، ولا يطالب عنده بشرا ، ولا يعصى له فى المعروف أمرا ، ولا يستزله إلى معصية الله تعالى . فإنه يطلبه بمثلها ، ويصير عنده من أهلها ، وإن حظى عنده بمثلها فإن نفسه تمقته فى الباطن " (١) .

ويزداد عبء العلماء تجاه السلطان ، كلما كانوا قريبين منه ، وذوى حظوة عندهم . ولهذا استحب " أبو حاتم ، محمد بن حيان ، " لمن امتحن بصحبة السلطان أن يعلمه لزوم تقوى الله والعمل الصالح كأنه يتعلم منه ، و يؤدبه كأنه يتادب به . ويتقى سخطاته .... ومن صحب السلطان لم يأمن التغير على نفسه ؛ لأن الأنهار إنما تكون عذبة مالم تنصب إلى البحور ، فإذا وقعت فى البحور ملحت . على أن قعود العلماء على أبواب الملوك زيادة فى نور علمهم ، وكثرة غشيانهم إياهم غشاوة على قلوبهم ، ومن صحب الملوك لم يأمن تغيرهم ومن زايلهم لم يأمن تفقدهم ، وإن قطع الأمور دونهم لم يأمن فيها مخالفتهم ، وإن عزم على شيء لم يجد بدا من مؤامرتهم ، وأسمح شيء بالملوك الحدة "(٢) .

واختلف الفقهاء والزهاد فى أمر الدخول على السلطان ، فمنهم من دخل عليهم ؛ ليعظهم ويذكرهم بأمور الدين ، وأمور الرعية ، ومنهم من امتنع عن ذلك ، فقد وعظ أبو حازم الأعرج سليمان بن عبد الملك حتى بكى سليمان .

---

(١) وصية الشيخ الفقيه الحافظ أبى الوليد الباجى الأندلس لولديه ص ٤٨ .
(٢) روضة العقلاء ص ٢٧٤ ، ٢٧٥

فقال له بعض جلسائه :

أسرفت – ويحك – على أمير المؤمنين . فقال له أبو حازم :

" اسكت فإن الله – عز و جل – أخذ الميثاق على العلماء ليبيينه للناس ولا يكتمونه " (١) .

ووعظ عطاء بن يسار الوليد بن عبد الملك ، فقال له :

" قال عمر بن الخطاب : وددت أنى خرجت من هذا الأمر كفافا لاعلى ولالى . فقال : كذبت . فقلت : أو كذبت ! فما أفلت منه إلا بجريعة الذقن . أى : نجوت منه بأعجوبة " (٢) .

وامتنع الإمام أحمد بن حنبل عن زيارة السلطان ، لأنه كان يكره ذلك . " قال صالح بن أحمد : قدم محمد بن عبد الله بن طاهر ، فوجه إلى أبى : أحب أن تصير إلى ، وتعلمنى اليوم الذى تعزم عليه حتى لايكون عندى أحد ، فوجه إليه :

أنا رجل لم أخالط السلطان ، وقد أعفانى أمير المؤمنين (المتوكل) مما أكره ، وهذا مما أكره .... قال ابن الجوزى : وإنما امتنع أحمد من زيارة ابن طاهر . لأنه كان سلطانا ، و إلا فقد كان يزور أهل الدين والعلم " (٣) .

وأما الإمام مالك ، فكان يرى غير ذلك ، حيث كان يدخل على السلاطين ، بل " كانت صلة مالك بالولاة والخلفاء حماية للمدينة من ظلم الولاة وإهمال الخلفاء . ولذلك لم يكف عن التدخل فى أعمالهم ، قيل له : إنك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون ! قال : رحمك الله وأين التكلم بالحق ؟! .

---

(١) جمهرة خطب العرب – أحمد زكى صفوت ٢ / ١٨ ؛ ٤ – المكتبة العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م

(٢) العقد الفريد ١ / ٨٤ – تحقيق : د / أحمد يسرى العزباوى – دار الإمام على للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م .

(٣) مناقب الامام أحمد – ابن الجوزى ص ٥١١ – تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركى – هجر للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م .

وكان يحمل على نفسه وهو مريض أو ضعيف فيذهب إلى الأمراء فى حين يدع الخروج إلى المسجد . ويقول لمن يسأله فى ذلك : أما تركى الخروج إلى المسجد فإنى ضعفت عن ذلك وأما إتيانى الأمراء فبالحمل منى على نفسى فإنه ربما استشير بعض من لا يستشار " (١) .

وكانت له فى هذا الأمر كلمات مأثورة ، منها قوله عن الولاة : " لولا أنى آتيهم ما رأيت للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هذه المدينة سنة معمولا بها . والرسول يقول : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر . ومالك رضى الله عنه يقول : على كل مسلم جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل إلى كل سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره ؛ لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك ، فإذا كان فهو الفضل الذى لا بعده فضل " (٢) .

وأما الإمام أبو حنيفة ، فكان " فى العصر ذاته يعلم أبا يوسف معاملة السلطان ، فيقول : وإذا رأيت من سلطان مالا يوافق العلم فاذكر ذلك مع طاعتك إياه فإن يده أقوى من يدك . ثم يعلمه موعظة السلطان فى يسر ولين " (٣) .

وكان الإمام مالك لايرى الخروج على السلطان ؛ " سأله سائل عن محاربة الخارجين على السلطان . قال مالك : إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم . قال السائل : فإن لم يكونوا مثله ؟ فأجاب : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما . وعمر بن عبد العزيز لا يتكرر . فمالك يفتى بالحياد أبدا ؛ لأنه يأمل صلاح الحكام بالموعظة الحسنة .... وليس تغيير النظم السياسية عمل الفقيه . وإنما عمله بيان حدود الله وحقوق المسلمين " (٤) .

---

(١) ، (٢) مالك بن أنس ــ عبد الحليم الجندى ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٣) المرجع نفسه ص ٢٤٧ .
(٤) مالك بن أنس ــ عبد الحليم الجندى ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

وللوعظ فضائل كثيرة ، من أهمها : حب النفس إلى مقوم ومحذر وذلك كما يقول ابن الجوزى :

" اعلم أن الطباع لما خلقت مائلة إلى حب الشهوات المردية ، والبطالة المؤذية، افتقرت إلى مقوم ، ومثقف ، ومحذر يرد .... ولهذا بعث الأنبياء بالترغيب والترهيب ، وأنزلت عليهم الكتب للتثقيف والتأديب . فما زالوا مبشرين ومنذرين ثم خلفهم العلماء وقد كان العلماء كلهم يذكرون بفتاويهم وعلمهم " (١) .

ويعود ابن الجوزى ، فيضع صفات للواعظ ، كى يصح وعظه ، يقول : " ينبغى للواعظ أن يكون حافظا لحديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عارفا بصحيحه وسقيمه ، ومسنده ومقطوعه ، ومعضله ، عالما بالتواريخ وسير السلف ، حافظا لأخبار الزهاد ، فقيها فى دين الله ، عالما بالعربية واللغة ، فصيح اللسان . ومدار ذلك كله على تقوى الله ـ عز وجل ـ وأنه بقدر تقواه يقع كلامه فى القلوب . وقال بعض السلف : إن الموعظة إذا خرجت من قلب الصادق وقعت فى القلب . ثم يصحح قصده ، فإنه إذا صح قصده صرف الله القلوب إليه ، ثم يخرج من قلبه الطمع فى أموال الناس " (٢) .

ويشترط ابن الجوزى فى الواعظ شروطا تتصل بالشكل أيضا ، يقول : وينبغى للواعظ أن يترك فضول العيش ويلبس متوسط الثياب ليقتدى به .... ولايعمل الوعظ إلا من متقشف ، متزهد ، متورع ، من وراء مدرعة صوف ، ونظافة جسم ، وتقليل قوت ، اشتغالا عن البدن بفضائل النفس كالطبيب الظاهر الحمية . فأما من من خرج بطينا فاخر الثياب مداخلا للسلاطين ، فكيف تستجيب له القلوب ؟ إنما يسمع من هؤلاء على سبيل الفرحة كسماع الأسمار من السمار" (٣) .

---

(١) القصاص والمذكرين ـ للحافظ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ص ١٩ ـ تحقيق : محمد السعيد بسيونى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .
(٢) القصاص والمذكرين ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤ .

وكما اختلف الفقهاء والزهاد فى الدخول على السلطان وصحبته ، اختلفوا كذلك فى قبول عطيته ، فمنهم من أخذها ، ومنهم من ردها ، بل منهم من كان يردها ردا جميلا . ومنهم من كان يردها بإبداء الأسباب فى صراحة وجرأة .

فقد " سئل عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ عن جائزة السلطان فقال : لحم طرى زكى " (١) .

وممن قبل الهدية ، الإمام مالك بن أنس " حين خل على هارون الرشيد فشكا اليه دينا لزمه فأمر له بألف دينار عين . فلما وضع يديه للقيام ، قال : يا أمير المؤمنين ، وزوجت ابنى محمدا فصار على فيه ألف دينار . قال : ولابنه ألف دينار " (٢) .

فالإمام مالك كان يبيع مع أخيه النضر البز ، " وكانت له من ذلك أربعمائة دينار يتجر بها فمنها كان قوام عيشه .... وهو كان مع هذا المورد يقبل هدايا الخلفاء ، ولا يعتريه شك فى حل أخذها ، كما كان يشك أبو حنيفة معاصره ... لم يكن مالك من المتزهدين فى أموال الخلفاء ، وإن كان يتعفف عن الأخذ ممن دونهم .... ولقد كان بعض الناس يستكثر قبوله الهدايا ، أو يستكثر بعض هذه الهدايا حتى إنه ليروى أن الرشيد أجازه بثلاثة آلاف دينار ، فقيل له : يا أبا عبد الله ثلاثة آلاف تأخذها من أمير المؤمنين ، فقال لو كان إمام عدل ، فأنصف أهل المروءة لم أربه بأسا " (٣) .

---

(١) العقد الفريد ١ / ٢٩٨ .
(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٩٩ .
(١) مالك (حياته وعصره آراؤه وفقهه) الإمام محمد أبوزهرة ص ٣٩ ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الثانية ١٩٥٢ .

ويبدو أن الإمام مالك لم يكن مستديما لقبول هذه الهدايا ، وإنما كانت هناك أسباب لقبولها ، فكان يقبلها " على مضض ، ليحفظ مروءته ، ويدفع ، وماكانت توجبه عليه مكانته الاجتماعية من إيواء لفقراء الطلاب وسد حاجة المحتاجين ، فهو يقبل هدايا الخلفاء بهذه النية ، ويظهر أنه مع الغرض الحسن كان يرى فيها شيئا ، ولذلك كان ينهى غيره عن قبول هدايا السلطان ، خشية ألا يكون له مثل نيته ، ولقد سئل كثيرا عن هدايا السلطان ، فكان يقول لسائله : لاتأخذها ، فيقول له : أنت تقبلها ، فيقول : أتريد أن تبوء بإثمي وإثمك ؟ وأحيانا يقول : أحببت أن تبكتني بذنوبي " (١) .

وممن قبل هدايا الخلفاء أبو يوسف صاحب أبي حنيفة وغيره ، أما الأئمة فانقسموا في عطاء الخلفاء ثلاثة أقسام :

القسم الأول – تعفف عن مال السلطان والخلافة ، ورفض الأخذ ، وشدد في الرفض ومنهم أبو حنيفة والثوري ، والإمام أحمد بن حنبل .

القسم الثاني – قبل العطاء ؛ ليستعين به في حاجات المعوزين ، وليعيش عيشة كريمة ، ومنهم مالك والحسن البصري .

القسم الثالث – قبل العمل للخلفاء ، وأخذ العطاء وتصدق به ، ويمثلهم الإمام الشافعي . (٢) .

وعدد أحد الباحثين كثيرا من أسماء الصحابة والتابعين الذين دخلوا على الخلفاء ، وقبلوا عطاياهم ، ومنهم : عبد الله بن عمر ، والحسن بن علي وعبد الله بن عباس ، حيث دخلوا على معاوية ورجعوا يحملون عطاياه وحصل هذا من كبار التابعين ، وبخاصة الفقهاء السبعة ، حيث كان هؤلاء يكونون مجلس شورى عمر بن عبد العزيز عندما كان أميرا على المدينة . ووفد عروة بن الزبير على عبد الملك ، وابنه الوليد ، ونال منهما الإكرام والعطاء " (٣) .

---

(١) مالك (حياته وعصره آراؤه وفقهه) الإمام محمد أبوزهرة ص ٣٩ – دار الفكر العربي – الطبعة الثانية ١٩٥٢ .

(٢) انظر ذلك بالتفصيل في : ابن حنبل – حياته وعصره وآراؤه وفقهه – الإمام محمد أبوزهرة – دار الفكر العربي = القاهرة ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م .

(٣) الإمام الزهري ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

ونرى فى الجانب الآخر كثيرا من "الفقهاء والزهاد الذين رفضوا هذه الهدايا ، ومن هؤلاء سفيان الثورى ، لما أراد الرشيد " أن يتزوج على زبيدة ، فقالت له: لا يحل لك ذلك ، فبعث إلى سفيان الثورى ، فقال له الرشيد : إن زبيدة تزعم أنه لا يحل لى أن أتزوج عليها ، وقد قال الله تعالى : (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) ثم سكت ، فقال سفيان : تمم الآية ، يريد أن يقرأ : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) وأنت لاتعدل ، فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم ، فأبى سفيان أن يقبلها " (١) .

ومنهم أبو حازم الأعرج ، فقد " خرج من عند سليمان بن عبد الملك بعد أن وعظه ، فبعث إليه بمال فرده ، وقال للرسول : قل له : والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسى ؟ " (٢) .

واجب السلطان

لخص أبو حاتم واجب السلطان فقال : " الواجب على من ملك أمور المسلمين الرجوع إلى الله ــ جل وعلا ــ فى كل لحظة وطرفة ؛ لئلا يطغيه ما هو فيه من تسلطه ، بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه ، وأنه هو المنتقم فمن ظلم ، والمجازى لمن أحسن ، فليلزم فى إمرته السلوك الذى يؤديه إلى اكتساب الخير فى الدارين ، وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله ؛فإنه لا محالة مسئول عن شكر ما هو فيه ، كما لا محالة مسئول عن حسابه " (٣) .

---

(١) حلية الأولياء ٦ / ٣٧٨ ــ نقلا عن : هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا ــ د / شوقى أبو خليل ص ٣٧ ــ دار الفكر بدمشق ــ الطبعة الرابعة ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م .

(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤١٨ .

(٣) روضة العقلاء ص ٢٧٧ .

كما يجب عليه الاستعانة بالبطانة الصالحة من وزراء وعلماء ، يهدونه طرق الصواب ، ويهدئون من ثورته عند الغضب ويسكنون ريح الحدة والانتقام ، ومن أحسن ما يستعين به السلطان على أسبابه " اتخاذ وزير عفيف ناصح ، فإن الوزير إذا غفل الأمير ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإن سولت له نفسه سيئة صده ، وإن أراد طاعة نشطه، فهو المحبب له إلى الناس، والمستجلب له دعاءهم"(١).

ويجب على السلطان قبول النصح والعمل بما في النصيحة من خير وبر ، وإحسان للرعية ، فقد كان الخلفاء – رضى الله عنهم – يقبلونها ، ويحثون عليها فقد قال " رجل لعمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : اتق الله . فأنكر ذلك بعض الحاضرين، فقال عمر :

" دعه فليقلها لى . نعم ما قال . لاخير فيكم إذا لم تقولوها ، ولاخير فينا إذا لم نقبلها . إن العظيم الحق لاتضره كلمة الحق وإنه ليدرك أن عظمته إلى جوار عظمة الخالق كجناح بعوضة " (٢) .

وتتوقف درجة قبول النصيحة على شخصية السلطان وتكوينه واستعداد لمثل هذه الأمور ، فها هو ذا عبد الملك بن مروان " أول من نهى الناس عن الكلام بحضرة الخلفاء ، وكان الناس قبله يراجعون الخليفة فيما يقول ، ويعترضون عليه فيما يفعل ، وأكثروا من ذلك على عثمان ، ثم على معاوية .... فلما صار الأمر إلى عبد الملك ، أخذ الناس مأخذ ملوك الأعاجم فنهاهم عن الكلام بحضرته ، والمنازعة فى مجلسه ، وتوعدهم على مخالفة رسمه فى ذلك " (٣) .

ونرى الصاحب بن عباد ، يهتم بالهيئة والشكل ، فقد " حضر مجلسه بشيراز العالم اللغوى جنادة بن محمد ، وهو أشعث الزى ذو أطمار رثة و سخة ، فجلس قريبا من الصاحب – وكان مشغولا – فلما بصر به قطب ، وقال : قم يا كلب من ها هنا ! فقال له جنادة : الكلب هو الذى لايعرف للكلب ثلاثمائة اسم ، فمد عند ذلك الصاحب يده ، وقال :

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٧٥.

(٢) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام – عبد الحليم الجندى ص ٧٠ – المكتبة النموذجية بالقاهرة ١٩٧٠ م .

(٣) الأوائل ، لأبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ص ١٧١ – دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م .

قم الى هاهنا ، فما يجب أن يكون مكانك حيث جلست ورفعه إلى جانبه " (١) .

وشخصية كشخصية الحجاج بن يوسف الثقفى تنبىء عن كبر وتجبر ، وازدراء العلماء ، واستعلاء على قبول النصح والموعظة ، وهو الذى وصف نفسه لعبد الملك قائلا :

" أنا حديد حسود حقود لجوج ذو قسوة ، فبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان ، فقال : انتحل الشر بحذافيره ، والمروق من جميع الخير بزوبره (بأجمعه) ، ولقد تأنق فى ذم نفسه ، وتجود فى الدلالة على لؤم طبعه ، وفى إقامة البرهان على افراط كفره ، والخروج من كنف ربه ، وشدة المشاكلة لشيطانه " (٢) .

وكذلك كان رأى الفقهاء فى الحجاج ، فقد " ذكر يوما للحسن البصرى فقال : أتانا أعيمش أخيفـــش ، له جميمة يرجلها ، وأخرج إلينا بنانا قصارا ، والله ما عرق فيها عنان فى سبيل الله ، فقال : بايعونى ، فبايعناه ، ثم رقى هذه الأعواد ينظر إلينا بالتصغير ، وننظر إليه بالتعظيم ؛ يأمرنا بالمعروف ويجتنبه ، وينهانا عن المنكر ويرتكبه " (٣) .

وكان يقول فيه أيضا : " مازال النفاق مقموعا حتى عمم هذا عمامة ؛ وقلد سيفا " (٤) .

ولهذا سنجد مواقف الفقهاء منه تتفق وتكوين هذه الشخصية المحيرة .
وتلقانا شخصية محبة للعلم والفقه والعدل فيتجه إليها الفقهاء ، ويلتف حولها الزهاد بالنصح والإرشاد بناء على طلب من هذا الورع التقى ، ذلكم الخليفة العادل ، عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – الذى أجمع العلماء على أنه خامس الراشدين ، فقد كان " أربه فى الفقهاء والعلماء ، وأهل التقوى ،

---

(١) بغية الوعاة ١ / ٤٨٩ .
(٢) الأمالى ، لأبى على القالى ٢ / ١١١ .
(٣) ، (٤) أمالى المرتضى ١ / ١٥٥ .

والنفوس الكبيرة ، والهمم العالية ، فهذه الفئة من الأئمة فيها خلق وكف عن الذميم ، وفيها جوانب إصلاح وإعمار ، ومجالات صدق وإخلاص ؛ فأفسح لهم فى مجالسه مكانا بارزا ، وأرسل فى طلبهم من جميع الأمصار والأقطار ، فأتوا اليه ، واتخذوا أماكنهم لديه ... وفى مجالسه كان يستمع إلى المواعظ والحكم فقد سمع مواعظ ابن القرظى وغيره من الوعاظ والحكماء " (١) .

وقد استفاد عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه — من هذه المجالس الوعظية ، فكان " لاينفذ كتابا ، ولا يأمر بأمر ، ولا يقضى بقضية إلا عن رأى العلماء الجلة ومشاورتهم ، والصدر عما يجمعون عليه ويذهبون إليه ، ويرونه من السنة عن النبى — صلى الله عليه وسلم — وعن أصحابه المهتدين بهديه ، المقتدين بسنته " (٢) .

واجب العلماء تجاه السلطان

كثيرا ما يضل الناس حكامهم ، ولذا يجب على العلماء النصح لهم ، وبيان الصالح من الفاسد من الاعتقاد — خصوصا إذا كان الحاكم على غير فقه وفهم — كما حدث مع الزهرى والوليد بن عبد الملك ، فقد " دخل الزهرى عليه ، فقال له الوليد : ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟ قال : وما هويا أمير المؤمنين ، أنبى خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبى ؟ قال : بل نبى خليفة . قال : فإن الله يقول لنبيه داود : (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبى خليفة ،

---

(١) الخليفة عمربن عبد العزيز والشعر — د / عبد الحميد المعينى — ص ٦٢ ، ٦٣ — مطبوعات نادى أبها الأدبى بالسعودية — الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م ؟

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢١٢ : ٢٢٩ — نقلا عن : العلماء الذين لم يتجاوزوا سن الأشد — على محمد العمران ص ٦١ — دار العاصمة للنشر والتوزيع — الرياض — الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .

فما ظنك بخليفة غير نبى ؟ قال : إن الناس ليغووننا عن ديننا " (١) .

وهناك أمور مشتركة بين السلطان والفقهاء ، كلاهما مسئول عن إنجاحها وايصالها للطريق القويم ، منها :

سعة صدر السلطان للنصيحة ، وحكمة العالم وحلمه فى إبداء النصح ، كالذى حدث بين الحارث بن مسكين والمأمون ، فقد " دخل الحارث بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة فقال : أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد ، وذكر قوله فلم يعجب المأمون . فقال : لقد تيست فيها وتيس مالك . قال الحارث بن مسكين : فالسامع ياأمير المؤمنين من التيسين أتيس ؛ فتغير وجه المأمون . وقام الحارث بن مسكين فخرج وتندم على ما كان من قوله ، فلم يستقر فى منزله حتى أتاه رسول المأمون ، فأيقن بالشر ولبس ثياب أكفانه ؛ ثم أقبل حتى دخل عليه ، فقربه المأمون من نفسه ، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له : يا هذا ، إن الله قد أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر منى ، فقال لنبيه موسى – صلى الله عليه وسلم – إذ أرسله إلى فرعون : (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) .

فقال يا أمير المؤمنين ، أبوء بالذنب ، وأستغفر الرب قال :عفا الله عنك ، انصرف إذا اشئت " (٢) .

ومن هذه الأمور ، الصبر على السلطان ، واللين له ، قال أبو حاتم : " الواجب على كل من يغشى السلطان وامتحن بصحبته ألا يعد شتمه شتما ، ولا إغلاظه إغلاظا . ولا التقصير فى حقه ذنبا ؛ لأن ريح العزة بسطت لسانه ويده بالغلظة .... وليجانب معه كلام الملق والإكثار من الدعاء فى كل وقت ، ويجتهد فى توقيره وتعظيمه عند الناس ، فإن غضب فليحتل فى تسكين غضبه باللين والمدارة ، ولايكون سببا لتهييجه (٣) .

ومنها : اغتنام الأوقات فى النصح والموعظة ، لمواسم العبادة ، وأوقات الرضا ، وساعات الصفاء والخلوة ، والملاحظ . " أن الفقهاء والزهاد كانوا يغتنمون

---

(١) العقد الفريد ١ / ٨٤ .
(٢) العقد الفريد ١ / ٨٠ .
(٣) روضة العقلاء ص ٢٧٦ .

فرصة وجود الخلفاء فى موسم الحج ، فيدخلون عليهم فيعظونهم ويخوفونهم فيما هم فيه من الإسراف والبذخ وهدر أموال المسلمين فى غير وجهها الصحيح ، فكانت تأبى أنفسهم عليهم السكوت على الظلم والجور ، وإذا كان بعضهم يتعفف من الدخول على أصحاب الشأن فإننى أجد أن الدخول عليهم أنفع وأجدى لما لهم من تأثير فيهم (١) .

مواقف الفقهاء والزهاد من الحكام

وقف الفقهاء والزهاد من الخلفاء ومعاونيهم مواقف مختلفة ، فمنهم من وقف مواقف جريئة - وهم الأعم الأغلب - فلم يداهنوا أو يخافوا فى الحق لومه لائم ، بل ثبتوا على الحق ، وواجهوا الأمر بشجاعة وثبات غير مبالين بالعواقب وكثيرا ما كانوا يفوزون فى نهاية الموقف ، ويعترف السلطان بحقهم وجرأتهم .

وفى مقابل هذا الصنف وجدنا قلة لمن ينتسبون للعلم وأهله ، داهنت السلطان ، وزينت له السوء ودفعته إليه دفعا ، جهلا منهم بالعواقب ، وطمعا فى نعيم زائل . وكثيرا ماكان السلطان ينعى عليهم جهلهم ، ويرد عليهم كذبتهم وتزويرهم.كما سنرى على صفحات هذا البحث .

ورايت أن أبدأ بالصنف الثانى (المنافق المرائى) ، لقلتهم أولا ، ولأترك الخاتمة الحسنةلعلماء الدين الذين لم يؤثروا شيئا على رضا الله - عز وجل - مهما كانت المطامع والمغريات .

نتبين موقف النفاق والمداهنة من هذه القصة التى تحكى أن يحيى بن عبد الله العلوى خرج على الرشيد ثم تصالحا على عهد بالأمان ، ثم نقل للرشيد ، عن يحيى ما يريب فأراد أن يقتله لكن العهد كان مسئولا ، فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد مخرجا ودعا محمد بن الحسن الشيبانى ، وأقرأه العهد ، فصحح محمد العهد وأفتى بالأمان ليحيى لكن الرشيد لم يرض بحكم محمد بن الحسن فدعا بأبى البخترى (الذى وصفه أحمد بن حنبل بأنه كذاب) فأقرأه العهد ، فأفتى بنقض العهد فعينه الرشيد قاضى القضاة (٢) .

---

(١) الإمام سفيان بن سعيد الثورى - د / عصام محمد الحاج على ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) انظر القصة بالتفصيل فى : أبو حنيفة ، لعبد الحليم الجندى ص ١٣٨ .

وامـا مـواقـف المـواجـهـة والجـرأة فـى الفـتوى فهى كثيرة جدا ، وسأذكر أقواها تأثيرا . وأبعدها خطرا .

وأول هـذه المواقـف موقـف المحتسب الـذى عيـنه أتـا بـك سـلطان دمشـق فقـام المحتسب بممارسة حقه فى العمل ومنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى مع من عينه ، فدخل على السلطان ذات مـــرة وقـــال لـه : قم عن هذه الطراحة وارفع هذا المسند الذى وراء ظهرك فإنهما حرير ، واخلع هذا الخاتم من إصبعك فانـه ذهب . وقد قـال النـبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فـى الذهب والحرير : إن هذين حرام على ذكور أمتى حل لإناثها . فنهض السلطان عن طراحته ، وأمر برفع مسنده ، وخلع الخاتم من إصبعه (١) .

فهذه القصة تدل على عدة أمور مهمة ، منها : جرأة الفقيه المحتسب التقى الذى لم يخش فـى الحق لومـة لائم فبدأ بولى الأمر لتصلح الأمة . ومنها : طاعة ولى الأمـر للفقـيه المكلـف بـأمور الديـن ، ومـنها : الكشـف عن تقـاعس المحتسبين السـابقين بـل ربمـا نفـاقهم للحـاكم حيث تـركوه فـى هـذه المخالفـة الشرعية دون توجيه طمـنا فى القربى منه وحبا فى عطاياه .

ومـن المواقـف الجريـئة فـى الحق موقف أبى يوسف صاحب أبى حنيفة حين ولى القضـاء . وقد اختصم رجل مع الخليفة العباسى موسى الهادى فى بستان ، فرأى أبـو يوسـف أن الحـق مـع الـرجل ـ وكـان للخليفة شهوده ـ فطلب أبو يوسف من الـهادى أن يحلف فنكل الهادى عن اليمين ورد البستان لصاحبه . وكذلك حلف أبو يوسـف الرشـيد فـى قضـية رأى أنـه يحلفـه فـيها وعندما اعترض عليه الوزير الفضل بن الربيع وأراد أن يشهد رد أبو يوسف شهادته وقال :
سمعتك تقول للخليفة : أنـا عبدك ، فإن كنت عبدا فلا شهادة للعبد ، و إن كنت كاذبا فإنك لكذلك (٢) .

---

(١) انظر : نظام الحسبة فى العراق حتى عصر المأمون نشأته وتطوره ـ رشاد عباس معتوق ص ١١٧ ـ الناشر : تهامة بجدة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م ـ والحديث الشريف فى سنن ابن ماجة ٢ / ١١٨٩ .
(٢) انظر : أبو حنيفة ، الجندى ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ومن المواقف الشجاعة ؛ موقف الإمام الثورى من أبى جعفر المنصور ، فقد دخل الثورى على أبى جعفر فى أثناء حجه ونصحه بأن ما أخذه من مال المسلمين لا يجوز له بهذا البذخ ، وأخبره بأن عمر بن الخطاب أنفق فى حجته ستة عشر دينارا ورأى أنه أجحف بيت المال ، وذكر الثورى حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " رب متخوض فى مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غدا " ، وكعادة المنافقين يرد عليه أحد المقربين وهو أبو عبيد الكاتب بأن مثل هذا الكلام لايستقبل به أمير المؤمنين ؛ فيجيبه سفيان بعنف : اسكت فإنما أهلك فرعون هامان ، وهامان فرعون (١) .

وهناك مواقف كثيرة تشير إلى ثبات الفقهاء والزهاد ، وعدم انحرافهم مع تيار أهل الهوى ، بل كانت مهمتهم حراسة العقيدة ورد الناس إلى نصاب الحق مهما كان الثمن . وتحتاج هذه المواقف إلى شجاعة أدبية ؛ لأنه ليس " من السهل أن تقبل الطبيعة البشرية النقد بسهولة أو بصدر رحب ، فما بالك بالخليفة ، ذلك العربى القح الذى تعود السيطرة وعدم الإذعان لمن هو أقل منه .... ويقال إنه لم يكن أحد يجرؤ على مجابهة المنصور بأفعاله ورفض عطاياه بشمم وإباء وتمنع غير عمرو بن عبيد الذى كان يعظ المنصور حينما يطلبه " (٢) .

ولايستطيع الشجاعة الأدبية إلا من قويت نفسه ، وعظمت منزلته لدى الخلفاء ؛ بسبب ترفعه عن الدنايا ، وثباته على الحق ، إذا إن أكبر ما يقوى " الشجاعة الأدبية فى النفوس تعظيم أمر الله تعالى وشدة الثقة بما وعدبه أنصار الحق من العزة فى الدنيا والسعادة فى الأخرى . ومن قرأ التاريخ وقف على أسماء رجال كثيرة لم ينالوا رفعة فى حياتهم ، وذكرا جميلا بعد مماتهم ؛ إلا لأنهم كانوا يجهرون بكلمة الحق فى وجوه الوجهاء أو الرؤساء لايصدهم عن الجهر بها خوف من مكرهم ، ولاطمع فيما بأيديهم " (٣) .

---

(١) أبو حنيفة ، للجندى ص ٢٥٨ .
(٢) السخرية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ـ د / نعمان محمد أمين طه ص ١١٩ وما بعدها ـ دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ـ مصر ـ الطبعة الأولى ١٣٩٨ = ١٩٧٨ م .
(٣) رسائل الإصلاح ص ٣٢ .

وتفيض تلك الفترة التى ندرسها بأسماء الفقهاء والزهاد الذين جابهوا الظلم فى عنفوانه نصحا وإرشادا ، كتابة ومشافهة ، دون خوف أو وجل ، وتحمل كثير منهم السجن والتعذيب فى سبيل إيصال كلمة الحق ، وكانوا فى نهاية المطاف يفوزون برضا الخلفاء والصفح عنهم ، ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل فى محنته، والإمام أبو حنيفة فى سجنه ، وغيرهما كثير .

الفصل الثاني

رسائل الفقهاء والزهاد

للخلفاء الأمويين والعباسيين

المبحث الأول

موضوعات رسائل الفقهاء والزهاد

الرسالة فن من فنون النثر العربى القديم ، والمراد بالرسالة " الخطاب المكتوب فى غرض جزئى ، يبعث به صاحبه إلى آخر . وقد عرفت الرسائل منذ الجاهلية فى بعض البيئات التى عرفت فيها الكتابة ، ولما جاء الإسلام كتب الرسول صلى الله عليه وسلم ـ إلى ملوك العرب والعجم يدعوهم إلى الدين وتبعه الخلفاء من بعده وأخذ هذا الفن يرقى ويتنوع مع تقدم الحياة الإسلامية حتى صار من أكثر فنون الأدب شيوعا ، وأغلبها على حياة الدواوين وبين الأفراد " (١) .

وفى تاريخنا العربى رسائل كثيرة جيدة ، دبجها كتاب مجيدون عرفوا بإتقان هذا الفن الأدبى ، كعبد الحميد ، وابن العميد ، والقاضى الفاضل وغيرهم ممن كتبوا أجود الرسائل التى تناقلتها كتب الأدب، ودارت حولها الدراسات الأدبية تاريخا ونقدا . كما اهتم كثير من العلماء بهذاالفن ، فألفوا فيه كتباأو فصولا من كتب ترسم للكتاب الطريق الصحيح لخوض هذا الفن ، ككتاب الصناعتين للعسكرى ، والمثل السائر لابن الأثير ، وصبح الأعشى فى صناعة الإنشا لأبى العباس القلقشندى .

فتاريخ هذا الفن قديم فى الأدب العربى ـ كما رأينا ـ حيث يرجع تاريخه " إلى ما قبل ألف وأربعمائة عام ، وجله بارع ، وهو من مأثور القول ، فى حين أن الغرب لم ينتبه إلى هذا الفن من الأدب إلا فى القرون الثلاثة الماضيات ، إذ أحلوا هذا الفن من الأدب مكانته المرموقة .

---

(١) الأسلوب ـ أحمد الشايب ص ١١٥ ـ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة الطبعة الثامنة ١٩٨٨ م .

ولشد ما أعجب الأدباء والقراء برسائل مدام دو سيفيني التي عاشت في القرن السابع عشر ، فقد تبوأت المكانة الرفيعة بين أدباء عصرها ، ومازالت رسائلها تتمتع بالشهرة الكبيرة في الأدب الفرنسي حتى اليوم" (١).

ولايستطيع كتابة الرسائل إلا الأدباء المجيدون الذين يتفننون في ضروب القول ، ويدورون في فلك الفن ، إذ إن معالجة هذا الفن " ليس بالأمر اليسير ، كما يظنه بعض الناس ، فهو يتطلب بادىء ذى بدء ، أصالة أدبية ، ومقدرة بارعة على التعبير ، مع سعة الاطلاع في المعارف ، يرفد ذلك ذوق سليم " (٢).

فكتابة الرسالة تتطلب من كاتبها أن يستخدم الطاقات الفنية التي تتعلق بدقة اختيار الألفاظ ، وحلاوة تركيب الجمل . وصياغة العبارات في تأليف المعاني، والموازنة بينها وبين الكلمات التي تعبر عنها إلى جانب توفير الإمتاع الفني للقارئ أو الملتقى (٣) .

وعرف الفقهاء والزهاد فن الرسائل ، فتبادلوها في المناسبات المختلفة ، وعند الحاجة إليها ، لبيان مسألة ، أو ردعلى مسألة ، أو توضيح غامض ، أو غير ذلك مما تدعو إليه الحاجة . وسنشير إلى بعض هذه الرسائل المتبادلة بينهم ؛ لنبين مدى معرفتهم بهذا اللون النثرى البديع .

من ذلك رسالتان بين الإمام مالك ويحيى بن يزيد النوفلي ، علم يحيى بن يزيد بما عليه الإمام مالك من رغد في العيش ، ولباس جيد ، وإقبال على التنعم من طيبات الحياة ، فأسدى إليه نصحه متمثلا في هذه الرسالة :

---

(١) رسائل الخليل / مقدمة بقلم : عدنان مردم بك ص ٧ ـ مؤسسة الرسالة بيروت ـ الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .
(٢) المرجع نفسه ص ٧ ، ٨ .
(٣) انظر : النثر الفني في القرن الرابع ـ د / زكي مبارك ص ١٠ ـ دار الجليل ـ بيروت ١٩٧٥ م .

" أمـا بعد فقد بلغني أنك تلبس الدقـاق ، وتـأكل الـرقاق ، وتجلـس علـى الوطـيء ، وتجعل علـى بـابك حاجبا . وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت اليك المطى وارتحل إليك الناس ، واتخذوك إماما ورضوا بقولك ، فاتق الله يامـالك . وعليك بالتواضـع . كتبت إليك بالنصيحة منى كتابا ما اطلع عليه غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ والسلام " (١) .

ويـرد علـيه الإمـام مـالك فـي تواضـع الأئمـة ، فيقول : " أمـا بعد فقد وصل كـتابك فوقـع منـي موقـع النصيحة والشـفقة والأدب . أمـتعك الله بالـتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيرا ، وأسـال الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله العلـي العظيم . فأمـا مـا ذكرت لـي أنـي آكل الـرقاق وألـبس الدقـاق وأحتجب وأجلس علـى الوطئ فنحـن نفعل ذلك . فقد قال الله تعالي (قل من حرم زينة الله التـي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هـي للذيـن آمـنوا فـي الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون)وإني لأ علم أن تـرك ذلك خير مـن الدخـول فيه . ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام" (٢) .

ولأن الأئمـة يعرفون طريق الهـدى والرشـاد ، كـانوا يقبلون النصيحة ، بـل ويذيعونـها فـي النـاس ، ولا أدل علـى ذلك مـن اشتهار هذا الكتاب على الرغم مـن سريته ، فهذا الكتاب (الذي لم يطلع عليه أحد الإ الله تعالى قد ذاع على الأسـماع عن طريق مـالك . فلقد أراد كاتبه أن يكون درسا لمالك و أراد مالك أن يكون الكتاب والرد عليه درسا من دروسه للأمة" (٣) .

ومـن هذه الرسـائل ، رسـالة الإمـام الليث بـن سـعد للإمام مالك يرد فيها علي كـتابه ، ويخالفـه فـي بعض الأحكـام ، ويبين رأيـه فـي بعض المسائل ، وهي رسـالة طويلـة تشـتمل علـي الأخوة والصداقة ، كمـا تفيض بذكر أحكام بعض المسـائل الفقهية ، وقد بدأها بقوله :(سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلـه إلا هـو ، أمـا بعـــد عافانـا الله وإياك ، وأحسن لـنا العقبـة فـي الدنـيا والآخرة ـ قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرنـي ،

---

(١) مالك بن أنس إمام دار الهجرة ص ١١٦ .
(٢) ، (٣) المرجع السابق ص ١١٦ .

فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه .... وأنه بلغك أنى أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم" (١) .

ويتطرق في صلب الرسالة إلى سرد بعض الفتاوى المخالفة لأهل المدينة والتي يفتي بها الليث ، ثم يذكر بعض الفتاوى التي يفتي بها مالك وهي مخالفة لرأى الليث ، فيقول : (وقد بلغنا عنكم شيئا من الفتيا مستكرها ، وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي ... وذلك أنه بلغني أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالي – حين أراد أن يستقي أن يقدم الصلاة قبل الخطبة ، فأعظمت ذلك ، لأن الخطبة والاستسقاء كهيئة يوم الجمعة إلا أن الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة فدعا حول ردائه ثم نزل فصلى " (٢).

ويختم رسالته بقوله : (وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استئناسي بمكانك ، وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه، ولاتترك الكتاب إلى بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك فإني أسر بذلك ، كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله " (٣) .

فالرسالة على ما فيها من فقه وأدب ، لاتخلو من فنية النثر وجودة اللفظة ، وجمال العبارة ، وسهولة التركيب ، وهى تكشف عن أدب الاختلاف الذى كان يتمتع به الفقهاء ، فهم مع اختلافهم فى الاجتهاد إلا أن حسن الحوار ، وصفاء وسلامة الصدر كان رائدهم ، فاختلاف الرأى لم يفسد الأخوة ،و لم يعكر صفو مودتهم – رحم الله فقهاءنا وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرا.

---

(١) ، (٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين – لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية ٣/ ٦٩ : ٧٣ – تحقيق / محمد عبد السلام إبراهيم – دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ١٤١٧ هـ = ١٩٩٦ م .
(١) المصدر السابق ٣ / ٧٣ .

ويعلق الإمام محمد أبو زهرة على هذه الرسالة تعليقا يرى فيه أمرين :

<u>أولاهما -</u>

أن الجدل بين الفقهاء كان يجرى فى كل مسائل الفقه المتشعبة ، وأن هذا الجدل كان يسوده طلب الحقيقة وليس التعصب للرأى .

<u>وثانيهما -</u>

أن الليث فى عرضه المسائل التى خالف فيها مالكا بيّن آراء الصحابة والتابعين المختلفة واختار من بينها ما رآه رأى الكثرة ، واعتناقه هذا لا يعد شذوذا" (١) .

واضطر الفقهاء فى بعض الأحيان لكتابة الرسائل كأجوبة عن بعض الاستفسارات أو نهيا عن اتباع بعض المنكرات ، كتب رجل للإمام أحمد بن حنبل يسأله عن مناظرة أهل الكلام ، فكتب إليه أحمد : " أحسن الله عاقبتك ، الذى كنا نسمع ، وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام ، والجلوس مع أهل الزيغ ، وإنما الأمر فى التسليم والانتهاء إلى ما فى كتاب الله ، لاتعد ذلك ، ولم يزل الناس يكرهون كل محدث من وضع كتاب ، وجلوس مع مبتدع ، ليردوا عليه بعض ما يلبس عليه فى دينه " (٢) .

والرسالة على قصرها يبدو فيها عدم اهتمام الإمام احمد بانتقاء ألفاظها ، ولابتجويد أسلوبها ، كأنها كل ما يعنيه رد الرجل عن مقارفة الإثم بالجلوس مع أهل الكلام ومناظرتهم - وهذا بخلاف كثير من الفقهاء والزهاد الذين عنوا برسائلهم عناية أدبية مع ما فيها من آراء فقهية أو مجادلة - كما رئنا فى رسالة الليث لمالك .

---

(١) انظر : الشافعى - حياته وعصره - آراؤه وفقهه - الإمام محمد أبوزهرة ص ٥٨ وما بعدها - دار الفكر العربى - القاهرة ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م .
(٢) ابن حنبل ، للإمام محمد أبوزهرة ص ٣٧ .

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه تلك الرسالة التى بعث بها سفيان الثورى إلى بعض أصحابه يدعوه فيها إلى العزلة والخمول وعدم الشهرة وبغض الرياسة ، يقول فيها :

" انك فى زمان كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ـ يتعوذون أن يدركوه ولهم من القدم ماليس لنا ، فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم وقلة صبر ، وقلة أعوان على الخير وفساد من الناس ، وكدر من الدنيا ، فعليك بالأمر الأول ، والتمسك به ، وعليك بالخمول ، فإن هذا زمن خمول ، وعليك بالعزلة ، وقلة مخالطة الناس ، فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض ، فأما اليوم فقد ذهب ذاك ، والنجاة فى تركهم فيما نرى ، وإياك والأمراء أن تدنو منهم وتخالطهم فى شىء من الأشياء ، وإياك أن تخدع ، فيقال لك تشفع ، وتدرأ عن مظلوم أو ترد مظلمة ، فإن ذلك خديعة إبليس ، وإنما اتخذها فجار القراء سلما " (١) .

والرسالة على ما تنطوى عليه من نصح وتوجيه ، لاتخلو من إبداع أدبى تمثل فى اختيار اللفظة ، وجمال العبارة ، وتحسين لفظى جاء فى صورة السجع الجميل (وقلة صبر وقلة أعوان على الخير ـ وإياك أن تخدع ، فيقال لك تشفع) ، ومزاوجة بين الأمر والنهى ، والخبر والإنشاء ؛ مما يدل على تمكن الفقيه الزاهد سفيان الثورى من ناصية البيان، وإحكام اللغة وبراعته فيها .

**** أما موضوعات الرسائل الموجهة للخلفاء ، فتدور حول الوعظ والتوجيه ، وما ينطويان عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والنصيحة بالعدل فى الرعية ، ومحاسبة العمال والأخذ على يد الظالم المتجبر منهم ، والتحذير من الاغترار بطول الأجل والركون للدنيا ، ورسم صفة الإمام العادل ، والتوجيه للسلوك الحسن فى الدنيا والعمل للآخرة بأداء أوامر الله واجتناب نواهيه ، وغير ذلك من الموضوعات الدينية التى يطلبها الفقيه أو الزاهد من الخليفة و يأمره بالتحلى بها ، والابتعاد عن نقيضها .

---

(١) حلية الأولياء ٦ / ٣٧٧ ـ نقلا عن : ابن حنبل ، للإمام محمد أبوزهرة ص ٨٢ .

و أول ما يلقانا من هذه الرسائل ، رسالة أنس[١] بن مالك ــ رضى الله عنه ــ خادم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وراوى بعض أحاديثه ، وقد وجه رسالته لعبد الملك بن مروان يوجهه للأخذ على يدى الحجاج بن يوسف الثقفى الذى عاث فى الأرض فسادا ، وقويت شكيمته على كل ضعيف ، وجار على كل صاحب حق ، وتطاول على صالحى هذه الأمة ــ ومنهم أنس بن مالك ــ وتبدأ القصة بدخول أنس بن مالك على الحجاج ذات يوم ، فيقول له الحجاج :

" إيها يا أنس ، يوما مع على ، ويوما مع ابن الزبير ، ويوما مع ابن الأشعث ؟ ! أما والله لأستأصلنك ، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة [٢] ! .

فقال أنس : من يعنى الأمير ؟ قال : إياك أعنى ، سك الله سمعك (دعاء عليه بالصمم) .

قال أنس : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لو لا الصبية لما باليت أى ميتة مت . ثم خرج من عنده وكتب رسالته إلى عبد الملك بن مروان " [٣] .

فأنس ــ رضى الله عنه ــ لم يصطدم مع الحجاج ، و إنما تخلص من الموقف بالاسترجاع والاعتذار بالصبية ، ثم خرج من عنده ووجه رسالة للخليفة عبد الملك بن مروان ، قال فيها :

" من أنس بن مالك خادم رسول الله إلى عبد الملك بن مروان : أما بعد فإن الحجاج قال لى هجرا (قبيجا) ، وأسمعنى نكرا ، ولم أك لذلك منه ولا منك أهلا ، فخذ على يديه ، واعل عليه فإنى أمت إليك بخدمة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وصحبتى إياه ، والسلام عليك ورحمة الله " [٤] .

---

(١) انس بن مالك الانصارى ــ رضى الله عنه ــ شهد فتح تستر وكان على الخيل ، صحب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وخدمه إلى أن قبض ، مات فى البصرة سنة ٩٣ هـ ، وكان آخر من مات من الصحابة فيها . انظر العفو / اعتذار ١ / ٩٠ هامش رقم ١٥٧ .

(٢) المراد : لأذهبن بك حتى لايبقى لك أثر ــ وفى اللسان : وفى حديث الحجاج : لأقلعنك قلع الصمغة ، أى : لأستأصلنك ، والصمغ إذا قلع انقلع كله من الشجرة ولم يبق له أثر ، وربما أخذ معه بعض لحائها .

(٣)العفو والاعتذار ــ لأبى الحسن محمد بن عمران العبدى المعروف بالزقام البصرى صاحب ابن دريد ٢ / ٥٨١ ، ٥٨٢ ــ تحقيق د / عبد القدوس أبو صالح ــ دار البشير ــ عمان ــ الأردن ــ الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م . وورد الخبر فى البيان والتبيين ١ / ٣٥٧ .

(٤) العفو والاعتذار ٢ / ٥٨٣

فالتوجيه هنا بأسلوب أدبى لا ثورة فيه ولا غلظة ، وإنما التزم أنس الهدوء، وحرك مشاعر الغضب على هذا العامل بإثارة النوازع الدينية لدى عبد الملك، وذلك لصلة أنس برسول الله ، ولفت نظره لما تستحقه هذه الصحبة المباركة ؛ فتحركت نوازع الدين فى قلب عبد الملك ، وأثرت فيه ، ووبخه ، وأمره بعدم التعرض لأنس مرة أخرى ، ثم وجه رسالة لأنس بن مالك قال فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج ، وما سلطته عليك ، ولا أمرته بالإساءة إليك . فإن يعد إلى مثلها فاكتب إلى أنزل به عقوبتى ، وأحسن لك معونتى ، والسلام عليك ورحمة الله " (١) .

ونلاحظ هنا استجابة عبد الملك لرسالة أنس ، والعمل على إنفاذ ما فيها ، بل والتعهد بحمايته من هذا الجبار ، والتنصل من المشاركة فى الإساءة لهذا الصحابى الجليل . كما نلاحظ المساواة بين الرسالتين فى الطول ، والاتفاق فى البدء والختام حتى فى السلام ، (والسلام عليك ورحمة الله) وفى أسلوب الخطاب بصيغة المفرد وليس صيغة الجمع ، وهذا يعكس صورة النثر الفنى فى ذلك العهد كما يعكس صورة الخلق التى كان عليها الصحابة مما جعل غيرهم يتعلم منهم أسلوب الخطاب ، حتى لو كان الخليفة ! .

ولم يتوان الحجاج ـ على قسوته ـ فى استرضاء أنس والاعتذار إليه بعد قراءة كتاب عبد الملك الموجه إليه ، ولهذا " ما عرف لعبد الملك مكرمة أكرم من هذه " (٢) .

ونلتقى فى رسائلنا التى ندرسها بقطبين من أقطاب الزهد والتقوى أحدهما حاكم والآخر محكوم ، ألا وهما : عمر بن عبد العزيز والحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ حيث التقيا فى الفكر والسلوك ، واتفقا فى العلم والعمل ، فكانا على قلب رجل واحد ؛ ولهذا أثرت مواعظ الحسن ـ مكتوبة ومشافهة ـ فى الخليفة الزاهد أثرا بالغا لم تبلغه عند غيره من الخلفاء .

---

(١) العفو والاعتذار ٢ / ٥٨٣

(٢) العفو والاعتذار ٢ / ٥٨٦ .

قال ابن عبد البر : " معلوم عند جماعة العلماء ، أن عمر بن عبد العزيز كان لاينفذ كتابا ، ولا يأمر بأمر ، ولايقضى بقضية إلا عن رأى العلماء الجلة ومشاورتهم ، والصدر عما يجمعون عليه ويذهبون إليه ، ويرونه من السنة عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعن أصحابه المهتدين بهديه المقتدين بسننه " (١) .

أحب الخليفة الزاهد علماء الأمة المخلصين ، فأفسح لهم " فى مجالسه مكانا بارزا وأرسل فى طلبهم من جميع الأمصار والأقطار فأتوا إليه ، واتخذوا أماكنهم لديه .... وفى مجالسه كان يستمع إلى المواعظ والحكم ، فقد سمع مواعظ ابن القرظى وغيره من الوعاظ والحكماء " (٢) .

وكان الحسن البصرى عالما ورعا ، وزاهدا تقيا ، وكان لبقا كيسا لايصادم بما يهدر الدم ، بل يراعى المقتضى المناسب دون أن يؤثر السكوت كمن استكانوا إلى المناصب غانمين ، ودون أن يجاهر بالثورة حيث لا أمل فى النجاح .... وله مع الحجاج وقفات هائلة وسلمه الله من شره ، وربما حضر مجلسه فلم يقم بل يوسع له ويجلس إلى جنبه ولايغير كلامه الذى هو فيه " (٣) .

وتمتع الحسن مع كل هذا ببلاغة منقطعة النظير ، فكان " بارع الفصاحة ، بليغ المواعظ ، كثير العلم . وجميع كلامه فى الوعظ وذم الدنيا أو جله مأخوذ لفظا ومعنى ، أو معنى دون لفظ ؛ من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ فهو القدوة والغاية " (٤) .

ونحن نخالف المرتضى فى الجزء الأخير من شهادته للحسن ، ونرى أنه تأثر بالإمام على ، لكن كانت له شخصيته المتفردة ، وبلاغته الخاصة به .

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبى ١ / ١١٨ وما بعدها ــ نقلا عن : العلماء الذين لم يبلغوا الأشد ص ٦١ .
(٢) الخليفة عمر بن عبد العزيز والشعر ــ د / عبد الحميد المعبني ص ٦٣ .
(٣) الحسن البصرى إمام أهل البصرة ــ الشيخ / كامل محمد عويضة ص ٢٣ ، ٥٣ ــ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ــ الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥ م .
(٤) أمالى المرتضى ١ / ١٥٣ .

ولم نكثر الحديث عن الحسن لأجل إطالة أو استطراد ، وإنما لما له من دور بارز فى مجال النثر الفنى فى العصر الأموي ، حيث مثل الوعاظ والزهاد فى المضمون وتمثل روح الفن الأصيل فى كتاباته وخطبه ومواعظه - كما سنرى على هذه الصفحات .
ولى عمر بن عبد العزيز أمر المسلمين ، فكتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رسالة جامعة رسم له فيها صفات الإمام العدل وما يجب أن يتحلى به ، ووعظه عظات بالغات أحلت فى قلب عمر فعمل بها وتأثر لها.

بدأ رسالته بصيغة الأمر ودون مقدمات مبينا دور الإمام العادل فى الأمة ، ثم ثنى برسم صورة للإمام العادل متمثلة فى الشفقة على الرعية ، و الرعاية الجادة المثمرة ، والحماية الحقيقية من موردات المهالك ، واستخدم الحسن التشبيه وسيلة من وسائل رسم هذه الصورة المتشعبة الجوانب التى تعطى فى النهاية رسما متكاملا لإمام تمتع بكل سمات العدل ، فهو أب حان ، وأم شفوق ، ووصى يتامى ، وقلب نابض بالصلاح ، ومبلغ عن الله - عز وجل ، قال الحسن :
" اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتادلها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة، البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتعظمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه . وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، ويسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم " (١) .

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٥ ، ٤٩٦ .

وبعد هذه المقدمة الوصفية البارعة ، يتطرق الحسن إلى الإنذار والتخويف من عذاب الله ، والدعوة إلى عمل الصالحات والنجاة من النار ، متخذا فى هذا الوعظ أساليب عديدة كالأمر والنهى والنداء ، واستخدام الرسم لمناظر منفرة تشيب لها النواصى ، وتقشعر منها الأبدان ، وأول هذه المواعظ هى التركيز على حفظ الأمانة ، والتحذير من تضييعها ، والتخويف من الموت وتفرق الأحبة ، ومواجهة العمل ، يقول الحسن : " فلا تكن ياأمير المؤمنين فيما ملتك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشتت العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكر يا أمير الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ، ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك فى قعره فريدا وحيدا ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها " (١) .

ويتدرج الحسن فى موعظته تدرجا مترابطا منطقيا ، فبعد أن مهد السبيل لقلب الحاكم ، ورسم له الصورة المثلى للإمام العادل ـ فى مقدمة رسالته ـ تدرج إلى الإنذار والتخويف ـ فى الجزء السابق ـ وقبل الخاتمة يتطرق إلى أمر هذا الإمام الذى يرجو العدل ، يأمره بالعدل فى رعيته ، ويحذره من الركون للحاشية الطاغية التى ترتع فى مهالك حاكمها ، ويخوفه من قدرة الحاكم الأعلى ـ سبحانه وتعالى ـ ويذكره بالوقوف بين يديه للسؤال عن هذه الرعية ، يقول الحسن :
" فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لاتحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلية ، ولاتسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة ، فتبوء بأوزارك ، و أوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ،

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٥ ، ٤٩٦ .

وأثقالا مع أثقالك ، ولايغرنك الذين يتمتعون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . لاتنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم " (١) .

ويختم الحسن رسالته ــ أوقل وثيقته الدستورية ــ بخاتمة بليغة ، فيها التواضع ، والإشارة لقيمتها ، والدعوة للمحافظة عليها ، والتعليل لقبولها تعليلا واقعيا ؛ فالحق مر ، ولكنه يداوى المرضى كما يصنع الدواء بالعليل ، فمحبو المريض يكرهونه على شربه ؛ لما فيه عافيته و سلامته ، وكذا الرسالة ، قولها مر ، وعاقبة من قبلها وعمل بها الشفاء والسلامة ، يقول الحسن في خاتمة رسالته :
" إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى ، فلم آلك شفقة ونصحا ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه ، بسيقيه الأدوية الكريهة ؛ لما يرجــو له في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته " (٢) .

ونلاحظ في هذه الرسالة عدة جوانب ، من أهمها :

١ ــ تكرار ألفاظ الاحترام والمودة ، مثل أمير المؤمنين ، حيث كررها خمس عشرة مرة في هذه الرسالة .
٢ ــ لين الجانب في النصح ، وذكر ألفاظ الشفقة والرحمة والموعظة ، وعدم استخدام الغلظة في إسداء النصح والتوجيه .
٣ ــ بدؤها وختامها بالأمر (اعلم ، أنزل) لما فيه من الاهتمام بشأن المأمور به والمحافظة على ما فيه من منافع .

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٤٩٦ ، ٤٩٧ .
(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٧ .

والتعليل لهذه الملاحظات يكمن فى اتفاق الناصح والمنصوح فى العقيدة والسلوك والمنهج ، كما يكمن فى طلب المنصوح هذا النصح ، فجاءت النصائح هادئة رزينة ، لاثورة فيها ولاغلطة .
وهذه الرسالة " تبدو متميزة تميز شخصية الزاهد الذى لم يعرف موارة ولاتزلفا ولانفاقا .... فالزاهد الكاتب هنا يبدو عفيف النفس طاهر القلب لايعرف النفاق ، وربما كانت ثقته فى ورع الخليفة دافعا مشجعا من وراء كتابته إليه بهذه الصراحة وذلك الوضوح ، ومن ثم عمد إلى تكثيف حسه الدينى عبر سطوره : تقاريره وصوره ، وهى كثافة تكثر فيها الاقتباسات الصريحة من الآيات القرآنية أو الاكتفاء باللمح بالحس الدينى " (١) .

وكان عمربن عبد العزيز كثيرا ما يطلب من الحسن البصرى الكتابة إليه ، فكتب اليه رسائل فى ذم الدنيا ، وفى الصبر وعاقبته ، كما كان يكتب إليه الحسن من غير طلب منه ، مثل رسالته التى قال فيها :

" أما بعد ، فان طول البقاء إلى فناء ، فخذ من فنائك الذى لايبقى ، لبقائك الذى لا يفنى ، والسلام " (٢) .

ومن رسائل الحسن البليغة ، رسالته فى ذم الدنيا ، وقد طلب منه ذلك عمر بن عبد العزيز ، فشخذ الحسن طاقته ، وحشد وسائل بلاغته ؛ ليصور الدنيا صورا عديدة تهدف فى مجموعها للفتك بمحبيها ، والتخلى عن عابديها ، وخداع من أنس بها .
بدأ الحسن رسالته بالتأكيد على أن الدنيا دار ارتحال ، لايركن إليها إلا غافل ، ولايفر منها إلا عاقل ، ثم أخذ فى رسم صورتها البشعة ، فهى تذل من أعزها ، وهى سم قاتل لايتناوله إلا الجاهل ، وهى عروس ماكرة تتزين لخطابها لتقتل من فاز بها ، قال الحسن :
" أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن الدنيا دار ظعن وانتقال ، وليست بدار إقامة على حال ، وإنما أنزل إليها آدام عقوبة ، فاحذرها . فإن الراغب فيها تارك ،

---

(١) النثر الفنى فى صدر الإسلام والعصر الأموى – د / مى يوسف خليف ص ١٥٢ ، ١٥٣ – دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة (ب . ت) .
(٢) أمالى المرتضى ١ / ١٥٨ .

والغنى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق ، وجدها تذل من أعزها ، وتفرق من جمعه ، فهى كالسم يأكله من لايعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه والله حتفه ؛ فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جراحه ، يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ، الصبر على لأوائها ، أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرها ولم يغتر بزينتها، فإنها غدارة ختالة خداعة ، قد تعرضت بآمالها ، وتزينت لخطابها ، فهى كالعروس ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، وهى ـ والذى بعث محمد بالحق ـ لأزواجها قاتلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صرعها ، واحذر عثرتها ، فالرجاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مؤد إلى الهلكة والفناء " (١) .

وواضح من هذا الجزء إلحاح الحسن البصرى على التنفير من الدنيا ، واستخدامه لذلك شتى وسائل التنفير ، من تقبيح للصورة ، والتأكيد بكل أدوات التأكيد والحلف ، والتقديم والتأخير ؛ ليؤكد بذلك على مافى نفسه من بغض لها وعدم الركون لآمالها .

ويكمل الحسن البصرى صورة الدنيا الغادرة ، فيقول :

" واعلم يا أمير المؤمنين ، أن أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موفق ، والمتمسك بها هالك غرق ، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذره ، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين ؛ الدنيا والله يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لاعقل له ، وبها يغتر من لاعلم عنده ، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداوى جراحه ، يصبر على مرارة الدواء ، لما يرجو من العافية ، ويخاف من سوء عاقبة الدار ، والدنيا وايم الله يا أمير المؤمنين حلم ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، والعباد فى أضغاث أحلام " (١) .

---

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٨

ولم يشأ الحسن أن يختم هذه الرسالة بالسلام ؛ ليظل المتلقى يقظا فطنا ، يجيل بصره فى تلك المشاهد المؤلمة ؛ فيعمل على الخلاص منها . فاختار حكمة شعرية لتدل على صدق عاطفية ، وإخلاصه فى النصيحة والهداية ، فقال فى ختام الرسالة :
" وإنى قائل لك يا أمير المومنين ما قال الحكيم :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة**** وإلا فإنى لا إخالك ناجيا (١) .

وقد بلغت الموعظة مداها ، وأثمرت النصائح ، وأثر التصوير المنفر فى سامعيه ـ خصوصا الخليفة المرسل إليه ـ ، فلما وصل كتاب الحسن إلى عمر " بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده ، وقال : يرحم الله الحسن ، فإنه لايزال يوقظنا من الرقدة ، وينبهنا من الغفلة ، ولله هو من مشفق ما أنصحه ! وواعظ ما أصدقة وأفصحة ! " (٢) .

ونحن نرى أن وحدة الموضوع لها أثر كبير فى هذا الجانب ، فالموضوع هو ذم الدنيا " وقد استطاع الحسن أن يدور فى هذا الفلك وحده ، وأن يتعمق فى تصوير الدنيا ، وحاول رسم الصورة من جميع اتجاهاتها ، فكانت كل لقطة بمثابة جانب واحد ، حتى إذا التأمت اللقطات جميعها تآزرت فى كشف الجوانب الخفية ، وبدت واضحة للبيب الفطن على حقيقتها من غير تذويق أو خداع ـ فارتدع عن غيه ،وثاب إلى رشده، واستيقظ من غفلته ـ وكل هذا بفضل التعمق فى الموضوع ، والربط بين جزئياته المتناثرة .

وممن راسل عمر بن عبد العزيز ، غيلان الدمشقى ، فمن رسائله هذا الجزء الوعظى الذى يقول فيه : " اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقا باليا ، ورسما عافيا ، فيا ميت بين الأموات لاترى أثرا فتتبع ولاتسمع صوتا فتنتفع ، طفىء أمر السنة ، وظهرت البدعة أخيف العالم فلا يتكلم ، ولايعطى الجاهل فيسأل " (٣) .

---

(١) ، (٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٨ ، ٤٩٩.
(٣) المنية والأمل ، لابن المرتضى ص ١٦ ـ نقلا عن : تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى ـ د / شوقى ضيف ص ٤٦٣ ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة العشرون ٢٠٠٢ م .

ويبدو من لهجة هذه الرسالة أن غيلان أنشأها فى بداية عهد عمر ؛ ليطلعه على الفساد الذى أحل بالأمة من قبل تؤليته الخلافة ، ولايخفى ما فى الرسالة من أسلوب الاحباط الذى يخاطب به عمر ، وربما يدفعه بهذا الأسلوب دفعا للعمل الجاد ، وإصلاح ما أفسده من سبقه .

وعلى كل حال فلم يبلغ غيلان فى النصح والتوجيه – من خلال هذا النص – ما بلغه الحسن البصرى فى رسائله القيمة النافعة .

ومن الذين راسلوا عمر بن عبد العزيز سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وقد بعث إليه عمر بن عبد العزيز رسالة ، يطلب فيها إرسال كتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضائه فى أهل القبلة ؛ ليسير عمر بن عبد العزيز بسيرته ، ويتبع أثره ، ، فرد عليه سالم برسالة طويلة ، ملأها بالنصح والتوجيه ، والتحذير من الظلم واتباع الهوى ، وختمها بالإجابة عن مطلب عمر .

بدأ سالم رسالته بمقدمة وعظية حذر فيها عمر من الركون للدنيا الغرورة القصيرة التى لايركن إليها إلا ظالم ، ولايقدر أهلها عليها ، قال : "من سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز . سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو – أما بعد فإن الله عز وجل – وتقدست أسماؤه لا يقدر أحد قدره سبحانه وتعالى عما يشركون خلق الدنيا كما أراد فجعل لها مدة قصيرة كأن ما بين أولها وآخرها ساعة من نهار ، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء فقال :
(كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) ولا يقدر أهلها منها على شىء حتى تفارقهم ويفارقوها . أنزل بذلك كتابا وبعث به نبيه – صلى الله عليه وسلم – وقدم فى ذلك بالوعيد ، ووصل فيه القول ، وضرب فيه الأمثال ، وشرع دينه فيه وأحل فيه الحلال ، وحرم فيه الحرام ، وقضى فأحسن فيه القصص ، وجعل دينه فى الأولين والآخرين دينا واحدا ولم يبدل قوله ، ولم يغير قضاءه ، ولم يختلف رسله ، ولم يسبق أحد من أمره بشىء وعد به أحد ، ولم يسعد أحد من أمره بشىء شقى به أحد " (١) .

---

(١) الذهب المسبوك فى وعظ الملوك تأليف أبى عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى ص ١٨٠ – تحقيق / أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى ، الدكتور / عبد الحليم عويس – عالم الكتب الرياض السعودية – الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢م .

وبعد أن اطمأن سالم إلى تمكن الخوف في قلب عمر ، دخل إلى صلب الرسالة ، فوجهه إلى العدل في الرعية ، والتوسعة عليهم ، حذره من الظلم وعاقبته ، وما يلقاه الظالم يوم القيامة من خسران ووبال على رؤوس الأشهاد .. أو اشار الى ظلم بني أمية وحذره بطانة السوء التي تتخذ الملك سلما للشهوات بظلم الضعاف ، والتقتير على المساكين ، قال سالم : " ثم إنك يا عمر بن عبد العزيز ليس تعدو أن تكون رجلا من بني آدم يكفيك من الطعام والشراب ما يكفى رجلا منهم .

اجعل فضل ذلك فيما بينك وبين الرب ـ عز وجل ـ الذى ترجوه شكر النعمة، ثم إنك قد وليت اليوم أمرا عظيما ليس يليه غيرك دون الله ـ عز وجل ـ أحد. فإن استطعت أن تغبن من كان قبلك ولا تخسر نفسك وأهلك يو القيامة فافعل و لا قوة إلا بالله ؛ فإنه قد كان قبلك فما مضى رجال عملوا ، وأماتوا ما أماتوا ، وأحيوا ما أحيوا ، حتى ولد في ذلك رجال ونشأوا وظنوا أنها هى السنة فلم يسدوا على العباد باب رخاء إلا فتح الله باب بلاء ، فإن استطعت أن تفتح عليهم أبواب الرخاء فافعل ؛ فإنك لن تفتح منها بابا إلا سد به عنك باب بلاء ، ولايمنعك من نزع عامل أن تقول لا أجد من يكفيني عمله فإنك إن كنت تعمل لله وتفزع لله أتاح الله لك أعوانا وأتى بهم . وإنما قدر العون بقدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله إياه ، ومن قصر من النية قصر من العون بقدر ذلك ، فإن استطعت أن تجيء يوم القيامة لايتبعك أحد بمظلمة ويجيء من قبلك وهم غابطون لك بقلة أتباعك فافعل ولاقوة إلا بالله ، فإنهم قد لقوا الله وعالجوا نزع الموت ، وعاينوا هول المطلع ، وانفقأت أعينهم التي كانت لاتنقضي لذتها ، وانشقت بطونهم التي كانوا لايشبعون فيها ، واندقت رقابهم غير متوسدة بعد ما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم . وصاروا جيفا في بطون الأرض تحت آكامها ؛ لو كانوا إلى جنب مساكين تأذوا من ريحهم بعد إنفاق ما لا يمضى من الطيب كان ذلك إسرافا وتغييرا عن حق الله فإنا لله وإنا إليه راجعون " (١) .

(١) المصدر السابق ١٨٠ ، ١٨١.

ويتطرق سالم بن عبد الله فى ترابط ودقة ـ إلى جزء آخر أو أقل صورة أخرى من صور الحكم ، ألا وهى محاسبة العمال ؛ فيحذر عمر بلهجة شديدة ، ويدعوه أن يأخذ على أيدى الظالمين منهم ، وألايدع مجالا للتكسب الحرام حتى لايقع فيما وقع فيه سابقوه من حكام جائرين ، ويرسم له طريق القضاء فى محاسبة الناس ، فلا تكفى الظنة ، ولاتنفع البدعة ، ويخيره بين راحة الضمير ، وعذاب المصير ، يقول سالم :

" ما أعظم الذى ابتليت به يا عمر ؛ فاقطع الذى سيق إليك من أمر هذه الأمة بالعدل ، ومن بعثت من عمالك فازجره زجرا شديدا شبيها بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها . المال المال يا عمر . الدم الدم يا عمر ، فإنه لاعدة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ولم تخيره . واحذر من بعثت من عمالك : أن يأخذوا فى ظنة ، أو يعملوا بعصبية ، أو يتخذوا فى عملهم خبنة (كتابة عن غلول العامل) ، أو يحدثوا على المسلمين تبعة . أو يسبقوا بدم فالله الله ياعمر . واعلم إن اجترأت على ذلك أوشكت أن يؤتى بك صغيرا ذليلا ، وإن أنت اجتنبت ذلك وجدت راحته فى قلبك وسمعك وظهرك " (١) .

ويختم سالم رسالته ـ وثيقته السياسية الدينية ـ بإجابة طلب عمر ، فيقول : كتبت تسألنى أن أبعث إليك بكتب عمر وسيرته وقضائه فى أهل القبلة والذمة، وإن عمر ـ رضى الله عنه ـ عمل به فى غير زمانك ، وعمل بغير رجالك ، ووليت فى زمن تعلم بعد ماعمل وأظهر ماتعلم . وأنا أرجو إن عملت على النحو الذى عمل به عمر بعد الذى رأيت و بلوت من الظلم أن تكون أفضل عند الله من منزلة عمر . وقل كما قال العبد الصالح : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) " (٢) .

وإنما أطلت فى ذكر هذه الرسالة الجامعة ؛ لما فيها من وجوه عديدة فهى تطلع المتلقى على لون آخر من ألوان الكتابة الأموية غير التى كتب بها الحسن البصرى ، كما تطلعه على رؤية فقيه تابعى جليل ، سليل بيت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ولايعدم المتلقى وجود فروق كثيرة بين رسالة الحسن البصرى فى الإمام العادل ـ وهذه الرسالة .

---

(١) ، (٢) المصدر السابق ص ١٨١ ، ١٨٢ .

فالحســـن كـان خفيف اللهجة ، يخاطب عمر بألقابه ويحفـــظ له رتبته ، أما سـالم فقد جرده من ألقابـه ، وناداه باسمه (عمر بن عبد العزيز) وأكثر من لغة التحذير وأسلوبه كمـا أن الحسن البصرى لم يتطرق إلـى عقد الموازنـة بين عمر بن عبد العزيز وعمر بن الخطاب كما فعل سالم ونلمح تلك الإشارات من سالم لمن سبق عهد عمر من بنىأمية ، ووصفهم بأبشع الصفات (التمـتع بـأكل الحـرام ، والـنوم علـى الفـرش الوطيـئة والسـرر المـرفوعة ، والـنفور مـن المسـاكين والـتأذى مـن ريحهـم مـع اسـتغلال حقوقهم فـى التطيب الكـاذب) . وربما كانت مندوقه سالم هى صلة القربى بينه وبين عمر بن عبد العزيـز ، وصلة القربى بينهما وبين عمر بن الخطاب الذى تطلع عمر بن عبد العزيـز لحسن سيرتـه ، ومحاولـة تقليدها . وأخيـرا يـأتى الفـرق فـى الخـتام ، حيث ختم الحسن البصرى رسالته بقوله : والسلام عليك يا لأمير المؤمنين ورحمـة الله وبـركاته ، ويـأتى خـتام سـالم بآيـة قرآنيـة تصـف حـال عمـر مـع عمالـه ورعيته فـى هذا الزمـن الـذى كثر فيه الفساد بحال نبى الله شعيب مع قومه .

*** ونـنـتقل إلـى العصـر العباسـى ، فنرى فقهاءه وزهاده يوجهون رسائلهم للخلفـاء ، خليفة تلو الخليفة ، وتدور كلها ــ كما دارت رسائل العصر الأموى ــ حول النصح والتوجيه ، ــ باستثناء رسالة الإمام أحمد ــ وهم يتحينون الفرصـة بعد الفرصـة ، لإسـداء النصـح لأئمـة المسـلمين فـى لهجـة أدبـية ، وأسلوب بلـيغ ؛ حتى تقـع النصيحة موقعهـا ، ومـنهم من كـان يبادر بالكتابة مـن غير طلب لذلك ، ومنهم من كان يرد على طلب ، ومنهم من كان يقتنص المناسبات فيدلى بوعظه ، ويملى نصائحه ومشورته .

ونـبدأ برسـالة دينـية للإمـام أحمـد بـن حنـبل رد بهـا علىكـتاب جـاءه مـن المتوكل، يطلب منه فيها ذكر رأيه فى قضيته خلق القرآن ، تلك القضية التى تعرض لمحنـتها كثـير مـن العلمـاء والفقهـاء ، وذاق مـرارتها الإمـام أحمـد ، ودخل السجن بسببها ، ونالـه مـا نالـه من العذاب والعنت فـى عهد المأمون والمعتصم ولكنه ثبت على الحق فـى هذا الاختبار الصعب حتىجاء المتوكل وأبطل هذه القضية ، ونهـى العلماء والعامة عن الخوض فيها وأطلق سراح الإمـام ، وطلب مـنه ذكـر رأيـه فيها ، فأملى الإمام على ولده عبد الله خلاصة رأيـه فـى هذه القضية ، وحشد طاقته العقلية مستعينا بالقرآن والسنة وأقوال السلف فى القرآن الكريم ، وجاء فى مقدمتها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، أحسن الله عاقبتك أبا الحسن (عبيد الله بن يحيى كاتب المتوكل) فى الأمور كلها ، ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته ، وقد كتبت إليك - رضى الله عنك - بالذى سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما حضرنى ، وإنى أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين ، فقد كان الناس فى خوض من الباطل واختلاف شديد ينغمسون فيه ، حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين ، فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة ، وانجلى عن الناس ماكانوا فيه من الذل وضيق المحابس فصرف الله ذلك كله، وذهب به إلى أمير المؤمنين ، ووقع ذلك من الناس موقعا عظيما ، ودعوا الله لأمير المؤمنين ، أن يزيد فى نيته ، وأن يعينه على ما هو عليه " (١).

وبعد هذه المقدمة ، يحشد الإمام طاقته العلمية ، فيجمع الآراء فى التدليل على حرمة الخوض فى هذه القضية ، فيذكر كثيرا من الأحاديث النبوية ، وآراء الصحابة ، ثم يتلو ذلك بذكر كثير من آيات القرآن ، حتى يخلص فى النهاية لنتيجة يقول بها ويراها رأيه ، ويرضاها للناس ، فيقول فى آخر الرسالة :

" ولقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله ، وهو غير مخلوق ، وهو الذى أذهب إليه ، لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام فى شىء من هذا ، إلا ما كان من كتاب الله ، أوفى حديث عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أوعن أصحابه أو عن التابعين ، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود " (٢).

وعلق الإمام أبوزهرة على هذه الرسالة بقوله : " هذه رسالة صحيحة السند ، ثابته النسبة ، وقد أمليت بعد ذهاب المحنة ، وأحمد فى شيخوخته ، أى وهو فى كمال استوائه العلمى فهى تدل على رأية الذى استقر عليه " (٣).

---

(١) ، (٢) حلية الأولياء نقلا عن : ابن حنبل ، للإمام أبى زهرة ص ١٠٨ : ١١١ .
(٣) المرجع السابق ص ١١١ .

ونحن نقول ليس فى الرسالة من فن الكتابة الأدبية سوى المقدمة التى ذكرناها آنفا ، وهى تدل على تمكن أحمد من اللغة ، ومعرفته بأساليب البيان، كما أنها تدل على حكمته فى تناول هذه القضية ، وعلى معرفته بأسلوب مخاطبة الخلفاء وإقناعهم بما يرى من فقه وعلم . أما ماعدا المقدمة فليس سوى أدلة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة التى جاءت متتابعة لمحاولة إثبات رأية فى هذه القضية ، وإغلاق باب الحديث فيها .

ونلتقى بعد ذلك بثلاث رسائل موجهة لهارون الرشيد ، رسالة قصيرة لابن السماك الواعظ ، ورسالة متوسطة لأبى يوسف صاحب أبى حنيفة ، ورسالة مطولة للإمام مالك وسأبدأ الحديث برسالة ابن السماك (١) .

وقد بعث بها لهارون الرشيد يعزيه فى ولده ، فمزج التعزية بالوعظ ، وركز موعظتة فى توجيه الخليفة لشكر النعم ، وتنفيره من دار الفناء ، وتحذيره من الركون لها ، والدعوة إلى الصبر ، قال ابن السماك :

" أما بعد ، فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكـــرك له حين وهبه ، فإنه حين قبضه أحرز لك هبته ، ولو سلم لم تسلم من فتنته ؛ أرأيت حزنك على ذهابه وتلهفك لفراقه ! أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك ! أما هو فقد خلص من الكدر وبقيت انت معلقا بالخطر واعلم ان المصيبة مصيبتان إن جزعت وإنما هى واحدة إن صبرت فلا تجمع الأمرين على نفسك (٢) .

رساله وعظية متماسكة حشد الواعظ أدواته الفنية فيها فأصاب الغرض ونفذ من خلال ذلك للتلميح لهارون بالتمسك بالخير وسبله والابتعاد عن الخطر وطرقه ولكن ابن السماك لم يتطرق إلى موضوع العدل أو الحديث عن نظم الدولة وربما السبب فى ذلك هول مصيبة هارون فلم يخرج الواعظ عن المقام.

---

(١) هو : محمد بن صبيح ، أبو العباس فقيه محدث واعظ حكيم ، كوفى قدم بغداد أيام الرشيد ووعظه ، مواعظه مشهورة ، ثم عاد إلى الكوفة حيث مات سنة ١٨٣ هـ . انظر : صفة الصفوة لابن الجوزى ٣ / ١١٥ وما بعدها .

(٢) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ٦٣/٣ ـ تحقيق /د.على طويل ـ دار الكتب العلميه بيروت ـ لبنان ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.

احب هارون الرشيد الفقهاء والوعاظ والمحدثون وقربهم إليه "ولقد كان لتقريب الرشيد للفقهاء آثار واضحة فقد كان كثير الاستماع لنصائحهم ويطلبها إن ضنوا بها ويستمع إليها وإن خشنت ألفاظها وقست عباراتها فهو يستمع إلى مالك ناصحا له ومرشدا ويستمع إلى غيره ولذلك كان للفقه والفقهاء مكانة فى عصر الرشيد يعتزون بعزة العلم ويعلون بعلوه " (١) .

ولم يكتف الرشيد بالفقهاء فقد جمع حوله كثيرا من الزهاد كالإمام الثورى الذى كان يعظه ويغلظ له القول وسنرى هذا عند الحديث عن المواعظ وفى هذه القصة مايدل على ذلك" أراد الرشيد أن يتزوج على زبيدة فقالت له لا يحل لك ذلك فبعث إلى سفيان الثورى فقال الرشيد :

إن زبيدة تزعم أنه لايحل لى أن أتزوج عليها وقد قال الله تعالى (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) ثم سكت ،فقال سفيان : تمم الآية،يريد أن يقرأ :(فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) وأنت لا تعدل ،فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم،فأبى سفيان أن يقبلها" (٢) .

وأما الرسالة المتوسطة ،فهى رسالة أبى يوسف (٣) . للرشيد ، وذلك عندما طلب الرشيد من أبى يوسف تاليف كتاب فى الخراج ، فاهتبل أبو يوسف الفرصة ، وقدم لكتابه بمقدمة وعظية رائعة ، وعظ فيها الرشيد وعظا بليغا ، ووجهه لكل خير ، وحذره من كل شر .

---

(١) الشافعى ـ حياته وعصره ،ابوزهرة ص٥٣ .

(٢) حلية الأولياء ٦\٣٧٨ ـنقلا عن :هارون الرشيد امير الخلفاء ص٣٧ .

(٣) هو: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصارى ، صاحب أبى حنيفة وتلميذه ،وأول من نشر مذهبه ، كان من حفاظ الحديث ، ولد سنة ١١٣ ، وتوفى سنة ١٨٢ ، ولى القضاء ببغداد أيام المهدى والهادى والرشيد ، ومات فى خلافته وهو على القضاء ، وهو أول من دعى قاضى القضاة ، له عدة مؤلفات أشهرها : الخراج .

انظر : مسالة الاحتجاج بالشافعى فيما أسند إليه والرد على الطاعنين بعظم جهلهم عليه ، الخطيب البغدادى ص٨٧هامش (١) تحقيق : خليل إبراهيم ملا خاطر ـشركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م .

حظى ابو يوسف بمنزلة رفيعة عند الرشيد ، فكان "يؤاكله ويحج معه عدلا على بعير — ويؤمه ويعلمه . ويدخل عليه راكبا بغلته فيستقبله الرشيد بالتشيد (جاءت بك معتجرا ببرده) وكانت تتقدم به المنزلة كلماتقدم به العمر وصلى عليه الرشيد عندما مات وأمر بدفنه فى مقابر قريش حيث دفن من بعده ولده الأمين ثم زبيدة أم الأمين " (١) .

ومع هذه المكانة العالية لم يتوان أبويوسف فى نصح الخلفاء ، والوقوف منهم مواقف جادة حينما يرى منهم حيادا عن الحق ، أو وقوفا فى صفوف الجائرين ، ولاأدل على ذلك من قوله للرشيد فى ختام مقدمة كتاب الخراج ـ رسالته:

" وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته لك وبينته ، فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه ، فإنى قد اجتهدت لك فى ذلك ولم آلك والمسلمين نصحا ، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه " . (٢) .

جاءت رسالة أبى يوسف لهارون الرشيد فى مقدمة كتاب الخراج ، فاغنت الرسالة عن خطبة الكتاب ، ووقعت موقعا عظيما فى نفس هارون الرشيد ، وفى نفوس المسلمين جميعا ، لأنها كانت بمثابة الضوء الهادى الذى وضعه هذا الفقيه المخلص بين يدى هذا الخليفة الذى يتحرى العدل ليطبقه فى رعيته .

بدأ أبو يوسف رسالته بمقدمة دعا فيها لهارون الرشيد ، وذكر أسباب تاليف كتاب الخراج ، والإشادة بعدل هارون لطلبه تاليف مثل هذا الكتاب ، قال أبو يوسف :

" أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، أدام له العز فى تمام من النعمة ، ودوام من الكرامة وجعل ما أنعم به عليه موصولا بنعيم الآخرة الذى لا ينفد ولا يزول، ومرافقة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . إن أمير المؤمنين ـ أيده الله تعالى ـ سألنى أن أضع له كتابا جامعا يعمل به فى جناية الخراج،

---

(١) أبو حنيفة ، للجندى ص١٢٩ .

(٢) كتاب الخراج ، للقاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم ص ٥٦ .

والعشور والصدقات ، والجوالي ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، و إنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصلاح لأمرهم . وفق الله تعالى أمير المؤمنين ، وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك ، وسلمه مما يخاف ويحذر ، وطلب أن أبين له ما سالنى عنه مما يريد العمل به ، وأفسره وأشرحه ن وقد فسرت ذلك وشرحته " . (١) .

وبعد هذه المقدمة الهادئة ، يأخذ أبو يوسف في إسداء النصح لهارون الرشيد ، فيحثه على التمسك بالحق فى قيادة رعيته ، فى أسلوب وعظي قوى اللهجة ، ويرسم له طرق الخلاص ، ويحذره من الظلم وعواقبه ، ويخوفه من عاقبة الظلم يوم القيامة ، ويستخدم أسلوب الأمر والنهى والاغراء ، والتحذير ، ومزج نصائحه بآيات من القرآن الكريم ، وبأحاديث نبوية شريفة ، ليقع الكلام موقعه ، ويختم هذه الفقرة الطويلة باستحضار مشهد القيامة وما فيه من خزي وندم ، يقول أبو يوسف في هذه النصائح :

" يا أمير المؤمنين ، إن الله وله الحمد ــ قد قلدك أمرا عظيما : ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب . قلدك أمر هذه الأمة ، فأصبحت وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم ، وليس يلبث البنيان ـ إذا أسس على غير التقوى ـ أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه و أعان عليه . فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة فى العمل بإذن الله . لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فإنك إن فعلت ذلك أضعت ، إن الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فإنه لا عمل بعد الأجل . إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدى الراعي إلى ربه ، فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ، ولا تزغ فتزيغ رعيتك . وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب . وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ؛ فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى . وكن من خشية الله على حذر ،

---

(١) كتاب الخراج ص٣ .

واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد ، ولا تخف فى الله لومة لائم . و احذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان ، واتق الله فإنما التقوى بالتوقي ، ومن يتق الله يقه . واعمل لأجل مفضوض ، وسبيل مسلوك ، وطريق مأخوذ ، وعمل محفوظ ، ومنهل مورود . فإن ذلك المورد الحق والموقف الأعظم الذى تطير فيه القلوب ، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته ، والخلـــق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه ويخافون عقوبته وكان ذلك قد كان . فكفى بالحسرة والندامة يومئذ فى ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل . يوم تزل فيه الأقدام ، وتتغير فيه الألوان ، ويطول فيه القيام ، ويشتد فيه الحساب . يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه :

(وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)

وقال تعالى :(هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين)

وقال تعالى : (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين)

وقال تعالى : (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وقال :(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) ، فيالها من عثرة لا تقال . ويالها من ندامة لا تنفع ، إنما هو اختلاف الليل والنهار : يبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، ويجزى الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب . فالله الله فإن البقاء قليل ، والخطب خطير ، والدنيا هالكة وهالك من فيها ، والآخرة هى دار القرار. فلا تلق الله غدا وأنت سالك سبيل المعتدين ، فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولايدينهم بمنازلهم . وقد حذر الله فاحذر ، فإنك لم تخلق عبثا ، ولن تترك سدى . وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به ، فانظر ما الجواب . واعلم أنه لن تزول غدا قدما عبد بين يدى الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة ، فقد قال ـ صلى الله عليه وسلم :

" لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن علمه ما عمل فيه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسده فيم أبلاه " ، فاعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها ، فإن ما عملت فأثبت فهو عليك غدا يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيم بينك وبين الله فى مجمع الأشهاد " [1] .

---

(١) المصدر السابق ص ٣ : ٥ .

ويلح أبو يوسف على قضية العدل فى الرعية ، وعدم تضييع الأمانة ، فيخصص لها جزء آخر من رسالته ، يشتد فيه وعظه ، ويعلو صوته ، وتغلظ نغمة الأمر والنهى فيه ، ويحشد لها من سيء الصور ما يستطيع حشده ، ليخوف الخليفة من الجور والظلم ، ويحذره من الاستعانة بغير العلماء ، يقول فى هذا الجزء القوى : " وإنى أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لاتنظر فى ذلك إلا إليه وله . فإنك أن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى ، وتعمى فى عينيك وتتعفى رسومه ويضيق عليك رحبه ، وتنكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها لا عليها ، فإن الراعى المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله و أورده أماكن الحياة والنجاة ، فإذا ترك ذلك أضاعه ، وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضر ، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ووقاه الله أضعاف ماوفى له .

فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفى ربها حقها منك ، ويضيعك - بما أضعت أجرك ، و إنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم و إنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره ، وعليك ما ضيعت منه ، فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تنسى . ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك . ولا يضيع حظك من هذه الدنيا فى هذه الأيام والليالى كثرة تحريك لسانك فى نفسك بذكر الله تسبيحا وتهليلا وتحميدا ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم - نبى الرحمة و إمام الهدى - صلى الله عليه وسلم، وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر خلفاء فى أرضه ، وجعل لهم نورا يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم ، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم . وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود ورد الحقوق الى أهلها بالتثبيت والأمر البين ، و إحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعا ، فإن إحياء السنن من الخير الذى يحيا ولا يموت . وجور الراعى هلاك للرعية ، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة" (١).

---

(١) المصدر السابق ص ٥ ، ٦

وقبل أن يختم رسالته بشكر نعمة الملك ، والحفاظ على أسباب دوامها ، بالتقرب إلى الله بعمل الطاعات ، و الابتعاد عن المعاصى التى تكون سببا فى زوال الملك وذل الملوك ، ويدعو له بحفظ الله له ، يقول :

" فاستتم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها ، فإن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز : لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) وليس شىء أحب إلى الله من الاصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد ، والعمل بالمعاصى كفر النعم . وقل من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم وسلط الله عليهم عدوهم . وإنى أسأل الله يا أمير المؤمنين الذى من عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك فى شىء من أمرك إلى نفسك ، وأن يتولى منك ماتولى من أوليائه وأحبائه . فإنه ولى ذلك والمرغوب إليه فيه " [١] .

ويختم أبويوسف رسالته بهذا المزج العجيب بين القسوة واللين فى النصيحة التى سادت الرساله ، فيوجه هارون لما فيها من منافع عظيمة ، ويأمره بحفظها . والعمل بما فيها لما فى ذلك من صلاح الرعية ، وكثرة الخراج الذى سن الفقيه تبيينـــه له ورسم طريقه الصحيح من الكتاب والسنة ، ولم ينس الفقيه ختم الرسالة بالدعاء لهارون بالتوفيق والسداد ،

يقول أبو يوسف :

" وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته لك وبينته ، فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه ، فإني قد اجتهدت لك فى ذلك ولم آلك والمسلمين نصحا، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه . وإنى لأرجو - أن عملت بما فيه من البيان - أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيتك ، فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ، ورفع الظلم عنهم ، والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم ، وكتبت لك أحاديث حسنة ، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه مما تريد العمل به إن شاء الله . فوفقك الله لما يرضيه عنك ، وأصلح بك ، وعلى يديك " [٢] .

---

(١) ، (٢) كتاب الخراج ص ٦ .

تلك رسالة فقيه عامل ، مخلص فى نصحه لخليفة يبحث عن العدل ، ويتحرى العمل بكتاب الله ، وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد جاءت الرسالة موافقة لموضوعها وسبب إنشائها ، فالسبب هو وضع كتاب فى الخراج ، فأرشد الكاتب خليفته لأمور مهمة قبل وضع أسس الخراج ، وأعلمه بأن العدل أساس الملك ، وسبب فى زيادة الخراج .

ومن الملاحظ تركيز أبى يوسف على قضية العدل فى الرعية ، وإلحاحه عليها إلحاحا شديدا ، وكأنه تأثر فى هذا الجانب برسالة الحسن البصرى التى وجهها لعمر بن عبد العزيز فى صفة الإمام العادل ، وتبقى روح أبى يوسف التى سرت فى رسالته ، فأحسسنا بروح الفقه والسنة فى كل جملة ومعنى من جمل ومعانى الرسالة . كما لاننسى تلك الجرأة التى تناول بها رسالته فى قسوة الألفاظ ، وخشونة الأوامر والنواهى ــ مع مكانة أبى يوسف من هارون ــ مما يؤكد صدق الرجل وإخلاصه فى نصحه وتوجيهه ، وأنه ــ كما قال فى الختام ــ لا يرجو بذلك سوى رضا الله تعالى .

وبعد أن أنهى أبو يوسف مقدمة كتاب الخراج فى هذه الرسالة ، وأتبعها بذكر جملة من الأحاديث النبوية فى الترغيب والتحضيض ، وذكر كثيرا من مواقف الصحابة والتابعين ؛ ليؤكد لهارون على قضية العدل فى الرعية ، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وعدم الغضب من النقد والمواجهة التى يرجى بها وجه الله ، استشهد لذلك ، بمواقف لعمر بن الخطاب و أبى بكر ــ رضى الله عنهما ــ ومواقف لعمر بن عبد العزيز ، ثم أخذ فى ذكر أبواب الكتاب ، فكان أولها : باب فى قسمة الغنائم ، وآخرها :

باب فى قتال أهل الشرك وأهل البغى وكيف يدعون . وقد كان هذا الكتاب " رسالة إلى الرشيد فى أحكام الأموال ، ألفها على طلب منه ، ومقدمتها تدل على أنه لم يكن يحابى أحدا فى الحق ، ولم يؤلف أحد من أهل طبقته مثيل هذا الكتاب ، بل لوقلنا : لم يؤلف مثله لم نكن مغالين ، فمن طالع الكتاب وقارنه بالكتب التى ألفت فى هذا الباب اعترف بذلك (١) .

---

(١) هارون الرشيد أمير الخلفاء ص ١٥٢ .

فكتاب الخراج إذان " رسالة كتبها أبو يوسف إلى الرشيد فى مالية الدولة فبين المصادر المالية للدولة ، وأبواب الدخل في تفصيل محكم دقيق يعتمد فيه عنى القرآن ، والمأثور عن النبي – صلى الله عليه وسلم –وفتاوى الصحابة ... والكتاب كله من وضع أبى يوسف لم يجعله رواية لغيره من الفقهاء .... وكتاب الخراج في بابه الفقهي ثروة فقهية ليس لها مثيل فى العصر الذي كتب فيه " (١) .

* و نلتقي بعد ذلك بآخر رسالة في هذا العصر – العباسي – وأطولها وأشملها ، وهى رسالة الإمام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ، وتوجه بها إلى هارون الرشيد ناصحا ومرشدا ، وموجها له إلى طريق الخير والرشاد ، ومنبها له لما فيه صلاح نفسه وصلاح رعيته ، ومحذرا له من الوقوع في المعاصي والمنكرات . واشتملت الرسالة على الموعظة والحكمة والدعوة إلى صالح الأعمال وحسن الأخلاق ، وتضمنت أحكاما فقهية عديدة معززة بالأدلة من القرآن والسنة ، وبدأت بمقدمة ، ثم صلب الموضوع ، وانتهت بخاتمة .

جاءت الرسالة فى كتاب : جمهرة رسائل العرب في الجزء الرابع لأحمد زكى صفوت ، وشغلت الرسالة من ص ٤٠٣ إلى ص ٤٥٨ أي وقعت في ست وعشرين صحيفة ، وأشار أحمد زكى صفوت إلى أن الرسالة طبعت بالمطبعة الأميرية فى سنة ١٣١١ هـ ، كما طبعت حديثا بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

بدأ الإمام رسالته بمقدمة جيدة ، حمد الله فيها وصلى وسلم على رسوله الكريم ، وذكر فيها قيمة الرسالة ونبه هارون الرشيد إلى الاهتمام بها ، والأخذ بما فيها ؛ لينال سعادة الدارين ، قال الإمام مالك :

---

(١) أبو حنيفة حياته وعصره آراؤه وفقهه – الإمام محمد أبوزهرة ص ١٧٤ وبعدها – دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٧ م.

" الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . أما بعد : فإنى كتبت إليك بكتاب لم آلك فيه رشدا ، ولم أدخرك فيه نصحا ، تحميدا لله ، وأدبا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتدبره بعقلك ، وردد فيه بصرك ، وأرعه سمعك ، ثم اعقله بقلبك ، وأحضره فهمك ، ولا تغيبن عنه ذهنك ، فإن فيه الفضل فى الدنيا ، وحسن ثواب الله تعالى فى الآخرة " (١) .

وهذه الوصية تشبه وصية أبى يوسف التى صدر بها كتاب الخراج ، غير أن أبا يوسف جعل وصيته فى ختام رسالته لهارون الرشيد ، بينما قدم بها الإمام مالك بين يدى رسالته ، والتقديم أفضل ؛ لينتبه السامع والقارىء للرسالة لما فيها من مواعظ وإرشادات . وهذا يؤكد أيضا اتفاق الفقيهين فى روح الإيمان ، وصدق الوعظ ، وصفاء القلب ، وطلب رضا الله سبحانه وتعالى فى كل ما يصدر عنهم من فتاوى وأحكام .
وبعد المقدمة أخذ فى التوجيه والنصح ، فذكره بالموت . وخوفه من العذاب ، ورسـم له عمل اليوم والليلة وفق ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ـ وذكره بواجبه تجاه الأمة ، ونفره من سوء الأخلاق ، وحثه على عمل الخير فقال :
" وإياك والكبر والزهو ، فإن الله عز وجل لا يحبهما ... احذر بطانة السوء وأهل الردى على نفسك .... اتق كثرة الضحك ، فإنه يدعو إلى السفه ... اترك من أعمال السر ما لا يحسن بك أن تعمله فى العلانية .... اتق أهل الفحش ، ومجالسة أهل الردى ، أنصف الناس من نفسك و لا تستطل عليهم ... لتكن يدك العليا على كل من خالطت ... إياك والرياء ، فإنه بلغنى أنه لايصعد عمل المرائى إلى الله عز وجل ، ولايزكيه عنده .... ارحم الناس يرحمك الله .... بر والديك وخصهما منك بالدعاء فى كل صلاة وأكثر لهما الاستغفار ، وابدأ بنفسك قبلهما .... احترس ممن يقرب إليك بالنميمة ، ويبلغ الكلام عن الناس .... إياك وظلم الضعيف ومن لايستعين عليك إلا بالله .... لا تغبرن أظفارك بالحناء ولا [illegible]يك إذا دخلت الحمام ، فإنه ليس من سيمى أهل الفضل ولاتحلف بالطلاق أولا بالعتاق ، فإنها من أيمان الفساق

(١) جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهية ، أحمد زكى صفوت ٤ / ٤٠٣ ـ المكتبة العلمية بيروت لبنان (ب . ت) .

لاتدهن فى مدهن ذهب ولافضة ، ولا تستجمر فى مجامر الذهب والفضة .... لاتشفع فيمن وجب عليه حد من حدود الله إذا انتهى إلى الإمام ولاتحل دونه .، ولا بأس أن تشفع قبل ذلك .... إذا عدت مريضا فأخف العيادة ، وأقل اللبث .... لاتلعب بالنرد ، ولاتحلل إزارك ولاتجرد ولاتحذف " (١) .

ومن الملاحظ فى هذه الرسالة ، أن الإمام مالك أكثر من الوعظ ، ونوع فى هذه المواعظ ، فكان منها السياسى ، والخلقى ، والسلوكى ، والتربوى . كما يلاحظ أنه كان يتبع كل وصية أو موعظة بدليلها من الكتاب أو السنة ـ وإن كانت أدلة السنة هى الغالبة ـ مما يكد الإخلاص فى النصح وربط الرسالة وما فيها بالدين وعلومه . وختم الإمام مالك رسالته بخاتمة رائعة جاءت بمثابة الثمرة المرجوة من الرسالة ، وكانت نتيجة مترتبة على العمل بالمواعظ والتوجيهات ، فقال :

" واعلم ـ رحمك الله ـ أن الله تعالى خصك من موعظتى بما نصحتك . وأنهيت إليك منه ، أرجو أن يكون سعادة لك وسببا إلى الجنة ، فليكن منك فيما كتبت إليك من القيام بأمر الله تعالى واتباع ما هو أهله ما ترجو به القربة عند الله تعالى ، ولايكن ذلك مما تظلف به عنه نفسك ، وتعاهدها بالأخذ والتأديب عليه إن شاء الله حتى توقفها على الذى لا ينبغى لك التقصير بها عنه إن شاء الله تعالى والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب " (٢) .

وكما حظى أبو يوسف بمكانة عالية عند الرشيد ، فإن الإمام مالك كان أرفع مكانة عنده ، لأسباب كثيرة ، منها : فقهه وورعه ، وتلمذة الرشيد على يديه ، وحب الرشيد للعلم والعلماء ورحيله لطلب العلم ، فقد قال القاضى الفاضل فى بعض رسائلة : " ما أعلم أن لملك رحلة قط فى طلب العلم إلا للرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله .... وقد ألح المهدى على الإمام مالك أن يسعى إلى قصده ليعلم ابنيه موسى وهارون ، فقال الإمام مالك :

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٠٦ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ٤ / ٤٢٨ .

لا يا أمير المؤمنين ، العلم يؤتى و لا يأتي ، و اضطر المهدى (خليفة المسلمين) أن يبعث ولديه موسى وهارون إلى الإمام مالك ليتلقيا العلم من إمام دار الهجرة فكانا يقفان على المنزل ، فيدقان الباب والريح تضرب وجهيهما بتراب العقيق ، حتى يأتي الإذن ، فيسرعان بالدخول " (١) .

---

(١) هارون الرشيد ١٦٢ ، ١٦٣ .

المبحث الثانى

الجوانب الفنية فى رسائل الفقهاء والزهاد

حظيت رسائل الفقهاء والزهاد بجوانب فنية متعددة ، وهى فى معظم جوانبها تتفق مع ما وضعه النقاد لأصول هذا الفن وأسسه ، مما يؤكد على تمكن الكتاب من فقهاء وزهاد . من ناصية البيان ، ومعرفتهم بأصول النثر الفنى مع تمتعهم بمعرفة الفقه والأحكام . وسأتناول بعض الجوانب الفنية التى تجمع رسائل الفقهاء والزهاد بشىء من التفصيل .

البناء الفنى

أشار الكتاب والنقاد إلى البناء الفنى الذى يجب أن تكون عليه الرسالة الفنية، وجمعوه فى ثلاثة أجزاء : هى البدء (المقدمة) ، والعرض (صلب الموضوع) والخاتمة (ختام الرسالة) . ونحن قد صنفنا الرسائل التى ندرسها تحت موضوع الرسائل الوعظية ؛ لأن معظمها يقوم على الوعظ والتوجيه ، والأمر والنهى .

كانت الرسائل فى القديم تبدأ بالبسملة وحمد الله والثناء عليه ، ثم يدخل الكاتب فى صلب الموضوع وينهى رسالته بالسلام ، وقد تبدأ بقول الكاتب : أما بعد ، وقد يدخل الكاتب فى الموضوع مباشرة ، ولا حظنا فى رسائل الفقهاء والزهاد تنوعا واختلافا فى البناء الفنى ، أى جاءت الرسائل على الأشكال الفنية القديمة المعروفة ، فنرى رسالة أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ تبدأ بقوله :

من أنس بن مالك خادم رسول الله إلى عبد الملك بن مروان ، أما بعد ــ ثم يوجز فى عرض رسالته ــ وهى الشكوى من الحجاج ويختمها بقوله : والسلام عليك ورحمة الله .

ونلتقى بالحسن البصرى ، وهو يوجه عدة رسائل إلى عمر بن عبد العزيز ، فيبدأ رسائله بمقدمات مختلفة ، فنراه يقول : أمابعد يا أمير المؤمنين ، ويقول مرة : اعلم يا أمير المؤمنين ، ثم يدخل فى عرض الموضوع وبسطه ، ويختم رسائله بختامات مختلفة ، فمرة يقول : والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، ومرة يختمها بموعظة من مواعظه فيقول :

" واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حرص على السلامة فى دار الإقامة . وفاز بالرحمة فأدخل الجنة " (١) .

ونراه – على قلة – يختم رسالته ببيت من الشعر ، فيقول :
وإنى قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم :

فإن تنج من ذى عظيمة   وإلا فإنى لا إخالك ناجيا .

ويختم بعض الفقهاء رسالته بآية قرآنية ، كما فعل سالم بن عبد الله ، فى رسالته لعمر بن عبد العزيز فقال : وقل كما قال العبد الصالح : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .
ويختلف الأمر فى العصر العباسى ، فتبدأ أحيانا بالبسملة ، كما جاء على لسان الإمام أحمد بن حنبل فى رسالته للمتوكل ، فقال :
بسم الله الرحمن الرحيم ، أحسن الله عاقبتك أبا الحسن فى الأمور كلها . ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته – ثم دخل فى الرد على الموضوع الفقهى والعقدى الذى طلب منه الحديث فيه وينهى رسالته بنهاية رأيه فى هذا الموضوع ، فيقول : ولقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله ، وهو غير مخلوق ، وهو الذى أذهب إليه .... فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود .
ويبدأ أبو يوسف رسالته – كتابه – بالدعاء ، فيقول : أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وأدام له العز فى تمام من النعمة ، ودوام من الكرامة ، وجعل ما أنعم به عليه موصولا بنعيم الآخرة الذى لاينفد ولايزول ، ومرافقة النبى – صلى الله عليه وسلم – ثم يختتم الرسالة بالدعاء له أيضا فيقول بعد أن أوصاه بالنظر فيها والعمل بها ، : فوفقك الله لما يرضيه عنك ، وأصلح بك ، وعلى يديك .
وقد جاء هذا الاضطراب من طول الرسالة – الكتاب – واختلاف أبوابها الفقهية التى طلبها منه هارون الرشيد ، فكانت الرسالة مقدمة للموضوع الذى أراد الحديث فيه وهو (الخراج) .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٢ / ٤٩٧ .

وتأتى رسالة الإمام مالك ، فنجده ـ يبدوها بالتحميد القصير ، فيقول :
الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد .
ثم يتلو ذلك بذكر قيمة رسالته وسبب تأليفها ، ونصح هارون بالنظر فيها والعمل بما جاء بها ، ثم يدخل فى صلب الرسالة ـ وهى عبارة عن مجموعة من الوصايا والنصائح المتعددة .
ويختتم رسالته بخاتمة طويلة عبارة عن نصيحة موجزة لهارون يحثه فيها على العمل بما جاء فى رسالته .
وهكذا تفاوت الفقهاء والزهاد فى البناء الفنى لرسائلهم ، وتفننوا فى هذا الجانب ، فجاء معظمه على المألوف لدى العرب القدامى ، وجاء بعضه جديدا اقتضته ظروف الرسائل أو الموضوعات أو كتابها .
وأما من حيث الطول والقصر ، فقد تفاوتت الرسائل أيضا ، فجاء منها الطويل جدا ، كرسالة الإمام مالك ، ورسالة أبى يوسف ـ كتاب الخراج وجاء منها المتوسط ، كرسالة الحسن البصرى فى صفة الإمام العادل ، ورسالة سالم بن عبد الله لعمر بن عبد العزيز ، وجاء منها القصير جدا ، كرسالة الحسن البصرى لعمر بن عبد العزيز ، حيث كتب له :
" أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل " (١) .

اللغة والأسلوب

جاءت لغة الرسائل واضحة ، سهلة ، معبرة عن معانيها التى قصدها أصحابها ، وابتعد الكتاب عن الغريب الحوشى ، ولم يتطرقوا إلى الصعب منها ولا الوعر ؛ وذلك بسبب سهولة الموضوعات التى طرقوها ، فهى نصائح و توجيهات سياسية أو تربوية ، أو سلوكية دينية ـ وكل هذه الموضوعات لاتحتاج إلى ألفاظ غريبة أو مهجورة ، وإنما يناسبها ما وضح وسهل من الألفاظ ، انظر مثلا إلى ألفاظ هذه الرسالة التى كتبها الحسن البصرى لعمر بن عبد العزيز ، وقد طلب منه ذلك وأمره بالإيجاز ، فقال الحسن :
وهى أشبه ما تكون بالتوقيعات التى تحمل المعانى الكثيرة فى ألفاظها القليلة .

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٤٣٦ . تحقيق حسن السندوبى ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م .

" أما بعد يا أمير المؤمنين ، فكأن الذى كان لم يكن ، وكأن الذى هو كائن قد نزل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن الهوى وإن أذاقك الطعم حلاوته ، فلبئس ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حرص على السلامة فى دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأدخل الجنة " (١) .

فأى سلاسة وسهولة وعذوبة تحملها تلك الألفاظ ؟
إن المتأمل فى هذه الرسالة لا يصل سمعه لفظ خشن ، ولا يؤذى بصره لفظ وعر أو مهجور ، وإنما جاءت ألفاظها غاية فى الوضوح والسهولة ، ودلت على المعانى التى قصدها الكاتب – الوعظ – فى سلاسة ويسر .
ومثال آخر على تلك السهولة نجده فى قول الإمام مالك :
أفش الصدقة فإنها تدفع ميتة السوء ، وليكن ذلك من أطيب مالك ، فإن الله تعالى لا يقبل إلا الطيب ... إذا نزلت بك كربة من كرب الدنيا فليكن مفزعك فيها إلى الله عز وجل حين تنزل بك .
كما نلمح هذه السهولة ، وهذا الوضوح فى رسالة أبى يوسف – مقدمة كتاب الخراج – حيث يقول لهارون الرشيد : وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى ، وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد ، ولاتخف فى الله لومة لائم .

كثرة الألفاظ الدينية

كثرت الألفاظ الدينية فى هذه الرسائل كثرة واضحة ، فبرزت ألفاظ النعيم ، العذاب ، الخوف ، الرجاء ، التقوى ، الحذر ، الدنيا ، الآخرة ، الجنة ، النار ، وغيرها . كما كثر ذكر لفظ الجلالة (الله) ، وكثرة صفات الله – عز وجل – فى هذه الرسائل .

---

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٧ .

ونلاحظ كثرة الألفاظ الفقهية مثل : الحلال ، الحرام ، المباح ، العمل ، الولاية ، تضييع الحقوق ، الغبن ، الخسارة ، النية ، الأخذ بالظنة ، التغرير ، جر المنفعة ، الزكاة ، الصلاة ، الصوم ، السفه ، الحدود ، القصاص ، وغيرها .

وهذه الألفاظ وقعت موقعها ، وعبرت عن معانيها أبلغ تعبير ولم نجد لفظة نابية أو ساقطة أو سوقية ؛ مما يدل على علو كعب الفقهاء وتمكنهم فى جانب اللغة .

أما الأساليب :

فكانت صحيحة قوية ، والتراكيب متينة ، عربية فصيحة ، لاتعقيد فيها ولا غموض ؛ لأن غموض الأسلوب يتبع غموض اللفظ ، ووضوح اللفظ يتبعه وضوح الأسلوب ، فجاءت الأساليب تبعا للألفاظ واضحة سهلة ، لاغموض فيها ولا التواء .
وإذا أردنا التمثيل لذلك كان من السهل الميسور ، ولنضرب مثلا بقول أبى يوسف :
" فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ولا تزغ فتزيغ رعيتك " .
وقول الحسن البصرى : " فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله " .
وهناك عدة جوانب تتصل بالأساليب ، نجملها فيما يأتى :

١ ــ المزاوجة بين الأساليب الخبرية والإنشائية ، مع غلبة الأساليب الإنشائية ، فكثرت أساليب الأمر والنهى ، والدعاء ، والنداء والشرط وغيرها من الأساليب الإنشائية ، وهذه الأساليب تتفق وموضوعات الوعظ ، فهى مبنية على الأمر والنهى ، والنداء ، والدعاء ، والترجى والتمنى وغيرها .
٢ ــ ظاهرة التكرار فى بعض الأساليب ، كتكرار جملة " أمير المؤمنين " فى بداية كل مقطع من مقاطع الرسالة ، فنجد الحسن البصرى يكررها فى رسالة واحدة خمس عشرة مرة فى رسالة الإمام العدل ، وكتكرار أسلوب الأمر فى الرسالة الواحدة فى بدايته كل مقطع ، وكذلك أسلوب النهى وهى كثيرة فى رسائل الفقهاء .

٣ ـ كثرة التوكيد وتكراره ، كما فى رسالة سالم بن عبد الله فى قوله : " ثم إنك ياعمر بن عبد العزيز .... ثم إنك قد وليت اليوم أمرا عظيما .... وإنما قدر العون بقدر النية .

٤ ـ شيوع أسلوب التحذير والاغراء ، كما فى رسالة سالم السابقة ، فى قوله : " المال المال ياعمر ـ الدم الدم ياعمر .... واحذر من بعثت من عمالك ، الله الله يا عمر .. " .

وقول أبى يوسف : " الله الله فإن البقاء قليل والخطب خطير " .

المحسنات البديعية :

ومما يتصل بدراسة الأسلوب ، الحديث عن المحسنات البديعية ودورها فى افساد المعنى أو تجميله ، ونلاحظ شيوع بعض الألوان البديعية فى هذه الرسائل لكن دون إفساد للمعانى ، حيث جاء معظمها عفويا وبغير كد ذهن أو بغرض الزينة .

فمن هذه الألوان : المقابلة ، فى قول الحسن البصرى : والدنيا وايم الله يا أمير المؤمنين حلم ، والآخرة يقظة ، وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته .

وقد عرف الحسن البصرى بهذا اللون ، وسماه النقاد (المزاوجة) ، يقول الدكتور / شوقى ضيف تعليقا على رسالة الحسن فى الإمام العادل :

" والحسن فى هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته والذى يقوم على الازدواج وتزيين المعانى بالصور حتى تتمكن فى النفس ، وكان يزيدها تمكينا بمقابلاته وطباقاته الكثيرة " [١] .

وقول أبى يوسف : فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى .

* كما نلاحظ كثرة الطباق والجناس كثرة واضحة فى كثير من هذه الرسائل ، كقول الحسن البصرى : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

فلا يخفى ما فى هذا الطباق المتلاحق من ترسيخ المعنى فى الذهن وجلاء الصورة فى النفس .

(١) تاريخ الأدب العربى ـ العصر ـ الإسلامية د . شوقى ص ٤٦٣ ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة العشرون ٢٠٠٢ م .

وكقول ابى يوسف : واتق الله فإنما التقوى بالتوقى ، ومن يتق الله يقه .
فالتلاعب بالجناس المشتق واستخدامه فى ترسيخ المعنى واضح ، وهو يؤكد بهذا المحسن على التمسك بالتقوى والتنفيذ من الجور .
كقوله : أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لاتنظر فى ذلك إلا إليه وله .
* وأما السجع ، فلم يهتم به كثير من الفقهاء والزهاد ، حتى إن كثيرا منهم لم يوردوه فى رسائلهم ، كسالم بن عبد الله الذى خلت رسالته من السجع - مع طولها - وانساب أسلوبها انسيابا ، وكذلك الإمام أحمد فى رسالته للمتوكل عن رأيه فى خلق القرآن .
وجاء السجع بقلة فى رسالة ابن السماك لهارون الرشيد فى تعزيته لولده ، فى قوله :

" أما هو فقد خلص من الكدر ، وبقيت أنت معلقا بالخطر " فالاتفاق فى نهاية الفواصل فى حرف الراء أعطى الجمل جرسا موسيقيا عذبا ، مع اتفاق الفقرات فى الطول فزاد المعنى بهاء وثبته فى ذهن المتلقى .

ومن استخدام السجع استخداما بديعا قول الحسن البصرى :

" فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لاتحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولاتسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة ، فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالا مع أثقالك ".

بهذا الجرس الصوتى غير الرتيب عبر الحسن البصرى عن معانيه ، فاختار فاصلة اللام فى تناسق الجمل الأولى ، ثم غير إلى فاصلة النون مع اتساق فى الجمل وتناغم فى الطول والقصر ، ثم فصل بجملة خالية من السجع ، ليختم فقرته بفاصلة الكاف ، وكأنه يذكرنا فى هذه المقطوعة بشعر المقطعات الذى تتغير قافيته فى كل مقطعة مع تماسك فى المعنى ، ووحدة فى الموضوع ، وتلك براعة الكاتب وقد يبدع الكاتب فى إيراد جمله وتناسقها من غير التزام السجع ،كقول الإمام مالك :

" فاحذر على نفسك حذرا غير تغرير ، وبادر بنفسك قبل أن تسبق إليها ، وما تخاف الحسرة منه عند نزول الموت ، وخاصم نفسك على مهل ، وأنت تقدر بإذن الله على جر المنفعة إليها ، وصرف الحجة عنها ، قبل أن يتولى الله حسابها ، ثم لا تقدر على صرف المكروه عنها " .

وكقول أبى يوسف : " واعمل لأجل مفضوص ، وسبيل مسلوك ، وطريق مأخوذ ، وعمل محفوظ ، ومنهل مورود " .

فالإمام مالك وازن بين جمله طولا وقصرا من غير التزام فواصل معينة ، فخلت قطعته من الموسيقى الرتيبة ، ومع ذلك فقد عبر عن معانيه تعبيرا جيدا ؛ وأما أبو يوسف فسلك سبيلا آخر كان فيه أقدر من الإمام مالك ـ مع خلو جملهما من السجع ـ فوازن بين جمله موازنة دقيقة ، واختار لها موسيقى رتيبة تمثلت فى إيراد اسم المفعول وختم الجمل به فكان أوقع من السجع المألوف ، ولم يزد عن كلمتين فى كل جملة أولاهما موصوف وأخراهما صفة ، فجاءت الموسيقى عذبة ، وأبدع فى تثبيت المعنى فى ذهن المتلقى ، وأوحى إليه بالتمسك بالعمل لما دعا إليه فى جمله .

*الافكار والمعانى .

اتسمت أفكار الرسائل ومعانيها بالوضوح والتمسك ، والترابط ، فجاء المعنى تلو المعنى يشد أزره ، ويحكم عراه حتى تتضح الصورة كاملة فى ذهن المتلقى ، وتسلسلت الأفكار تسلسلا منطقيا فى كثير من الرسائل ، فكان الكاتب يبدأ فكرته بمقدمة ثم يتلوها بتفصيل يبدد إجمالها ، ويوضح أطرافها ، بدأ أبو يوسف رسالته مجملة فقال : " إن أمير المؤمنين سألنى أن أضع له كتابا جامعا يعمل به فى جباية الخراج .... وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن الرعية والصلاح لأمرهم " .

وأخذ بعد ذلك فى تفصيل ما أجمله من هذ المعانى ، فبين له ثواب العدل ، وعقوبة الظلم فى أساليب تحذيرية مليئة بالأوامر والنواهى حتى أنهى رسالته .
وكان سالم بن عبد الله مخالفا لهذا القياس ، فبدأ بالتفصيل ، فذكر عمر بن عبد العزيز وخوفه من الظلم ، ورسم له طريق العدل ، ثم ختم رسالته بإجمال هذه المعانى فى إجابة طلبه عن كتب أرادها منه ، فقال :

" وأنا أرجو إن عملت على النحو الذى عمل به عمر بعد الذى رأيت وبلوت من الظلم أن تكون أفضل عند الله منزلة من عمر " .

واتسمت المعانى بعدة سمات ، نجملها فيما يلى :

١ – الأخذ من المعانى القرآنية ، والأحاديث النبوية .

قال أبو يوسف :

" وليس يلبث البنيان – إذا أسس على غير التقوى – أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه " .

فالمعنى مأخوذ من قوله تعالى :

" فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم " .

وقوله :

" فإنك لم تخلق عبثا ، ولن تترك سدى " نظر فيه إلى قوله تعالى : " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وقوله تعالى :

" أيحسب الإنسان أن يترك سدى " .

وقول الحسن :

" واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ،والكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها " .

أخذ هذه المعانى من الآيات القرآنية .

وقوله :

" وقد عنت الوجوه للحى القيوم " .

فالحسن لم يكتف بأخذ المعنى ، وإنما كان يقتبس أجزاء من الآيات ليدخلها فى معانيه ، فتزيدها تمكنا من النفس .

ومن الأخذ من الأحاديث ، قول أبى يوسف :

" فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفى ربها حقا منك ويضيعك بما أضعت أجرك " .

فإنه مأخوذ من معنى حديث :

" إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أم ضيع " .

٢ – كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

وهذا واضح فى رسالة الإمام أحمد ؛ لأن موضوعها ومناسبتها يقتضيان ذلك ، فهى رد على موضوع دينى عقدى . وأما بقية الكتاب من الفقهاء ، فقد وشحوا رسائلهم بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، فعل ذلك سالم بن

عبد الله فى وسط رسالته وفى ختامها ، فذكر آيتين من كتاب الله جاءتافى موقعهمامن الاستشهاد ، كانت الأولى تذكير العمر بفناء الدنيا ، فذكر قوله تعالــى : (كــل شــيء هالــك إلا وجهــه له الحكم وإليه ترجعون) وكانت الثانيــة تذكيــرا له فى ختام الرسالة بالعمل الصالح وابتغاء الثواب من الله تعالى فذكر قوله تعالى : " وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد الا الاصلاح ما استطعت عليه توكلت وإليه أنيب " .

وذكر أبو يوسف كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى مقدمة الكتاب الذى درسناه ، وزاد الأمر بعد ذلك فى حديثه عن الخراج وأبواب الكتاب يستشهد بالقرآن والسنة وأراء الفقهاء .

وأما الإمام مالك ، فلم يترك نصيحة من نصائحه الكثيرة ـ أمر أو نهى ـ إلا وأتبعه بحديث من الأحاديث النبوية أو آية قرآنية فكان يقول بعد كل نصيحة: بلغنى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذا ، ويذكر الحديث ، وربما يذكر ما فيه من وجه الدلالة ، وكان أحيانا يذكر وجه الاستدلال ببعض الآيات القرآنية ؛ و إنما الغالب عليه ذكر الأحاديث ، وأرى ذلك بسبب تأثره بالموطأ الذى ألفه وجمع فيه كثيرا من أحاديث رسول الله ، فأحب أن يذيعها فى تلك الرسالة الطويلة . قال الإمام مالك :
" أعن المظلوم ، وانصره ما استطعت ، وخذ على يد الظالم ، وادفعه عن ظلمه ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام . " .

وقال الإمام مالك :
" اقبل عذر من اعتذر إليك ، ورجع عما كرهت ، فإنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يعذره ، كان عليه مثل وزر صاحب مكس " .

وقال مالك :
" ارحم الناس يرحمك الله ، بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من لايرحم الناس لايرحمه الله " . أحبب طاعة الله يحبك الله ويحببك إلى خلقه ، قال عز وجل لنبيه :

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وقال عليه الصلاة والسلام : " إن الله جعل قرة عينى فى السجود " وقال بعض العلماء : ما أسر عبد قط سريرة خير إلا ألبسه الله رداءها ، ولا أسر سريرة شر قط إلا ألبسه الله رداءها " .

وسار الامام مالك على هذا السبيل قبيل خاتمة رسالته التى ختمها بنصيحة هارون بتعهد الرسالة وفهم ما فيها ، والعمل بما فيها .

٣ ـ خلو الرسائل من الشعر .

الرسائل واسطة العقد بين الشعر والنثر ، ويجوز إيرادها شعرا ، أو الموازنة فيها بين الشعر والنثر أو على أقل تقدير الاستشهاد فيها بالشعر . ومع كل هذا فقد خلت جميع الرسائل التى درسناها من الشعر اللهم الا من بيت واحد ورد فى نهاية رسالة للحسن . وأشرنا إليه قبل ذلك .

ولعل السبب فى ذلك اهتمام الفقهاء والزهاد بما فى رسائلهم من عظيم المعانى ، فانشغلوا عن الشعر بما هو أدل وأعظم لمعانيهم ، فاستشهدوا بالقرآن والسنة ؛ لأن الرسائل فى معرض الحديث عن أمور الدين .

وأريد ان انبه إلى شيىء مهم وهو صدق أصحاب الرسائل فيما كتبوا ، ووجهوا ، فجاءت كتاباتهم مؤثرة ؛ لصدقهم وإخلاصهم ، وقد بدا ذلك الأثر فيمن وجهت إليه أولا ، فرأينا بكاء عمر بن عبد العزيز ونحيبه إثر سماع رسالة للحسن ، ورأينا تأثر الرشيد بكلام الفقهاء والزهاد .

تحدث الأستاذ / أبو الحسن الندوى عن أسباب خلود الأعمال الأدبية فذكر منها الصدق والإخلاص والإيمان بالعمل والفكرة ، ثم تطرق إلى سبب نفسى رئيسى فقال :
" وهنالك شيء آخر وهو أن الإيمان وصفاء النفس والاشتغال بالله والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حسى ولطافة نفس وعذوبة روح ونفوذا إلى المعانى الدقيقة واقتدارا على التعبير البليغ ، فتأتى كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها وصورة لروحه ، خفيفة على النفس مشرقة الديباجة لطيفة السبك ، بارعة فى التصوير ، لذلك كان من الأدب الصوفى

ومن كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقولها على مر العصور والأجيال ، وترى من ذلك نماذج فى كلام السادة : الحسن البصرى ، وابن السماك ، والفضيل بن عياض تعد من محاسن العربية "(١).

*الصور والأخيلة .

استعان الفقهاء والزهاد بالتصوير فى تثبيت المعانى ، وتوضيح الأفكار ، واستخدموا وسائل التصوير المختلفة ، وكان أبرزها التشبية والاستعارة ، والكناية .
فاستخدم الحسن البصرى التشبيه بكثرة فى رسائله استخداما بديعا ، حيث لم يكتف بإيراد أركان التشبيه ؛ بل وسع الصورة التشبيهية بتفصيل وجه الشبه وذكر الأسباب التى من أجلها أورد التشبيه تحسينا وتقبيحا . فوقعت تشبيهاته موقعها البلاغى .

يقول فى رسالة الإمام العادل :
" والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر " .

فلم يكتف بتشبيه الإمام بالراعى الشفيق ؛ وإنما أورد من صفات الراعى ما يكمل به صورة الشفقة ، فهى جوانب متعددة ، وليست كلمة مبهمة عامة .
ويقول فى الرسالة نفسها :
" فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله " .

فجمال الصورة من تفريع التشبيه ، والإحاطة بكل جوانب المشبه به القبيحة من تبديد المال ،و تشريد العيال ، وإفقار الأهل ، وتفريق المال ؛ ولهذا وقعت الصورة موقعا حسنا فى نفس عمر المتلقى ، فنفر منها كل ذى لب ، وكل ذى ضمير حى يخشى الله ، ويرجو رضاه .

(١) نظرات فى الأدب ــ أبو الحسن الندوى ص ٣٣ ــ دار البشير للنشر والتوزيع ــ عمان الأردن ــ الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م .

ويقول في رسالة اخرى : " فكن فيها (الدنيا) يا أمير المؤمنين كالمداوى جراحه ، يحتمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا " .

ومن التشبيه قول سالم بن عبد الله يصف قصر الدنيا :
" خلق الله الدنيا كما أراد فجعل لها مدةقصيرة كأن ما بين أولها وآخرها ساعة من نهار " .

والتشبيه هنا تشبيه تقليدى لم يبلغ تشبيهات الحسن التى أوردنا طرفا منها . والملاحظ أن الحسن أكثر من تشبيهاته فى رسائله بخلاف بقية الفقهاء الذين أقلوا ـ بك ربما ندرت ـ التشبيهات فى رسائلهم .

* واما الاستعارة .

فجاءت فى رسائل الفقهاء بصورة متنوعة ، وتفنن كل كاتب فى رسم صوره بطريق الاستعارة التى تناسب ما يصبو إليه من معان .
رسم ابن السماك صورة الدنيا والخلاص منها أو البقاء فيها بطريق الاستعارة ، فقال مخاطبا هارون الرشيد :
" أما هو فقد خلص من الكدر ، وبقبت أنت معلقا بالخطر " ، فجاءت الصورة فى موقعها ، ورضيت نفس هارون ، وصبر على فراق ولده الذى تخلص من الدنيا المليئة بالأكدار ، والتفت إلى نفسه الباقية فى الدنيا المعلقة بأخطارها .

ورسم سالم بن عبد الله قوة الحاكم وعدله فى اختبار العمال وتبديل الفاسد منهم ، وذلك بطريق الاستعارة ، فقال :
" ولا يمنعنك من نزع عامل أن تقول لا أجد من يكفينى عمله فإنك إن كنت تعمل لله وتفزع لله أتاح الله لك أعوانا و أتى بهم " .

فالاستعانة بالاستعارة ، صورت تمكن العامل من عمله ، وصورت قوة الحاكم الذى ينتزع الفاسد من دولته ، كما ينتزع القوى جذع شجرة الفاسد من الأرض الصلبة ويستخدم الحسن البصرى الاستعارة استخداما مزدوجا موازنا بين صورة الحسن والقبح ، فيقول :

" واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر ، وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن الهوى وإن أذاقك طعم حلاوته ، فلبئس ما أعقبك من مرارته ، وسوء عاقبته " .

فأى جمال للمعنى ، وتثبيت له فى الذهن إن لم يرد بهذه الاستعارة البديعة ؟
ولا يكتفى أبو يوسف بإيراد استعارة واحدة فى تصوير ضلال الحاكم إن لم يأخذ بأسباب الهدى ، يقول :
" فإنك إن لاتفعل تتوعر عليك سهولة الهدى ، وتعمى فى عينيك ، وتتعفى رسومه ، ويضيق عليك رحبه ن وتنكر منه ماتعرف ، وتعرف منه ماتنكر " .

فتتابع الاستعارات أوحت للمخاطب والمتلقى بسوء عاقبة الظالم ، وكشفت تخبطه فى ظلمات الضلال .

ويرى الإمام مالك فى الاستعارة ما يستطيع به إبلاغ نصحه فيقول :
" وخاصم نفسك على مهل ، وأنت تقدر بإذن الله على جر المنفعة إليها . وصرف الحجة عنها ، قبل أن يتولى الله حسابها ، ثم لاتقدر على صرف المكروه عنها " .

* ويستعين الفقهاء والزهاد بالكناية فى رسم الصور التى يرونها مناسبة لمعانيهم الوعظية ، ويستخدمونها فى مواطن لايحسن فيها التصريح ، بل يكتفى فيها باللمحة والإشارة؛ ليفطن الفطن ،ويفهم المتلقى ما أراده الكاتب .

يقول الإمام أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ مخاطبا عبد الملك فى حق الحجاج الظالم الباغى :
" فخذ على يديه ، واعل عليه " .

ففى هذا القول البليغ ما فيه من الاستنفار ، وإيقاظ الهمم الغافلة ، وقد آتت هذه الكناية ثمارها ، فما كان من عبد الملك إلا أن هدد الحجاج ، فاسترضى الحجاج أنس بن مالك .

ويوالى غيلان الدمشقى بين كناياته المتتابعة ، فيرسلها لعمر بن عبد العزيز ، فتنزل عليه كالصواعق المتلاحقة ، فينتبه لها ويفكر فى شأنها ، يقول غيلان :

" اعلم ياعمر أنك أدركت من الإسلام خلقا باليا ، ورسما عافيا ، فياميت بين الأموات لاترى أثرا فتتبع ، ولا تسمع صوتا فتنتفع ، طفىء أمر السنة ، وظهرت البدعة أخيف العالم فلا يتكلم ، ولايعطى الجاهل فيسأل " .

فهذه الكنايات رسمت صورة العصر السابق لعهد عمر ؛ وأطلعت عمر على فساد الأمة ، وسوء التدبير فيها .

ويوازن سالم بن عبد الله بين حالى الأثرياء قبل عهد عمر بن عبد العزيز – قبل الموت وبعده ، ولم يجد فى هذه الموازنة ورسم الصور المختلفة غير الكناية ؛ فيرسم بها صورا تشيب الولدان ، وتنبه الغافلين ، وتخيف الطامعين . يقول سالم :

" فإنهم قد لقوا الله وعالجوا نزع الموت وعاينوا هول المطلع ، وانفقأت عيونهم التى كانت لا تنقضى لذتها ، وانشقت بطونهم التى كانوا لايشبعون فيها ، واندقت رقابهم غير متوسدة بعدما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم ، وصاروا جيفا فى بطون الأرض تحت أكامها لو كانوا إلى جنب مساكين تأذوا من ريحهم بعد إنفاق مالا يحصى من الطبب " .

ويصور الحسن البصرى هول الموقف يوم القيامة ، فيستعين فى ذلك بالكنايات التى ترسم صورة كاملة لهذا الفزع ، يقول :

" لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى جمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم " .

ويصور أبو يوسف الموقف نفسه مستخدما الكناية ، فيقول :

" فكفى بالحسرة والندامة يومئذ فى ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل ، يوم تزل فيه الأقدام وتتغير فيه الألوان ، ويطول فيه القيام ، ويشتد فيه الحساب " .

ومن الملاحظ أن الفقهاء والزهاد اعتمدوا فى كثير من روافد صورهم التى أشرنا إليها على المخزون الدينى لديهم من قرآن وسنة ، كما التمسوا بعض

صورهم من واقع الأمة السابق والمعاصرلهم ، فجاءت صورهم موثرة فى نفوس سامعيها من خلفاء وأمراء ، كما كان لها الأثر – ومازال – فى نفوس المتلقين ؛ لصدقها وبعدها عن الخيال الكاذب ، والمنفعة الزائلة ، وللصور فى أعقاب المعانى فوائد جليلة ، إذا التمثيل " إذا جاء فى أعقاب المعانى ، أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها .... وإن كان أشفى للصور ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغيابة ، ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ، ويشفى الغليل" (١) .

وهكذا أثر الفقهاء والزهاد فيمن كتبوا إليهم ، وكان لكتاباتهم الأثر الواضح فى تغيير كثير من صور الظلم سواء أكانت هذه الكتابات بوحى منهم أم بطلب من المرسل إليهم ، ولم يتوان الفقهاء والزهاد فى إسداء النصح للخلفاء من خلال تلك الرسائل القيمة ، وعلى الرغم من أن الغرض منها دينى خالص ، إلا أنها اشتملت على جوانب فنية كثيرة مما يؤكد ما ذهبنا إليه من تمكن هؤلاء العلماء من ناصية البيان ، ومعرفتهم بأسرار العربية .

---

(١) أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجانى ص ١١٥ . ١١٦ قرأه وعلق عليه / محمود محمد شاكر – الناشر دار المدنى بجدة – الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م .

الفصل الثالث
المواعظ الشفوية

المبحث الأول

موضوعات المواعظ

توطدت العلاقة بين الخلفاء والعلماء ــ خاصة الفقهاء والزهاد ــ وحظى الوعاظ بمكانة مرموقة لدى الخلفاء ، فكانوا يفسحون لهم فى مجالسهم ، ويستمعون لما يلقونه من مواعظ ، بل كان الخلفاء فى كثير من الأحيان يطلبون هذا الوعظ منهم ، ويصبرون على قسوة مافيه من الكلام .

بدأ خلفاء بنى أمية يسلكون هذا المسلك ، وكان عمر بن عبد العزيز رائدهم فى هذا الباب ، فكثيرا ما كان يطلب من الفقهاء والزهاد أن يعظوه ــ خصوصا الحسن البصرى ــ ، وجاء خلفاء بنى العباس " فاستنوا بخلفاء بنى أمية فى استقبال كثير من الوعاظ وكان المنصور خاصة يوسع لهم فى مجالسه .... وكان المهدى مثل أبيه يستدعى هؤلاء الوعاظ ويستمع إليهم ، ويروى أن صالح بن عبد الجليل وعظه يوما حتى سالت دموعه ، وكان الرشيد يقتدى به ، فكان يعظه ابن السماك وغيره " (١) .

نشأ الوعظ والقص منذ زمن بعيد واشتهر به جماعة منهم :
محمد بن كعب القرظى ، والحسن البصرى ، ومالك بن دينار ، وغيرهم ، وكان الوعاظ يلمون بمجالس الخلفاء والولاة فيعظونهم ويبكونهم ، وتمتلىء كتب الأدب بكثير من أسماء الوعاظ ومواعظهم . (٢) .

واتسم الوعاظ بسمات تليق بما هم فيه من زهد وورع ، فتركوا الدنيا وزخرفها ، وأقبلوا على الآخرة يعملون لها و يتهيأون للقاء ربهم ، فغلب على هيئاتهم الزهد والتقشف ، وأحب العلماء فيهم هذه الصفات ، وأشادوا بها ، قال ابن الجوزى :

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ــ د / شوقى ضيف ص ١٢٦ ــ دار المعارف بمصر ــ الطبعة الحادية عشرة ١٩٩٠ م .
(٢)انظر : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٧٦ ، ٧٧ .

" لكل قوم زى ، وكما لايحسن الغناء إلا من الجوارى الخرد ، ولا الغزل إلا من عاشق ، ولاالنوح الا من ثاكل ، ولا ذكر الاوطان إلا من غريب ، فكذلك لا يعمل الوعظ الا من متقشف متزهد ، متورع ، من وراء مدرعة صوف ، ونظافة جسم ، وتقليل قوت ، اشتغالا عن البدن بفضائل النفس ... فأما من خرج بطيننا فاخر الثياب مداخلا للسلاطين ، فكيف تستجيب له القلوب ؟ ... وينبغى للواعظ أن يعتزل العوام ليكون لكلامه وقع هيبة ، لا على وجه التصنع بالانقطاع " (١) .

وكان الفقهاء يعرفون قدر الموعظة ، فيدخلون على الخلفاء والأمراء ، فيعظونهم حتى يبكونهم . والإمام مالك رائد الفقهاء فى هذا الفن ، بل كان يحث العلماء على إرشاد الخلفاء والأمراء ، يقول : " حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل الى ذى سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر ، حتى يتبين دخول العالم عن غيره ، فإذا كان فهو الفضل الذى ما بعده فضل " (٢) .

وسلك الشافعى المسلك نفسه فى وعظ الخلفاء والولاة ، أما أحمد وأبو حنيفة فلم يسلكا هذا المسلك ؛ بسبب عدم الدخول عليهم والتردد على مجالسهم . كما وعظ الأوزاعى أبا جعفر المنصور وعظا بليغا بين له فيه أسباب النجاة ، ونهاه عن الوقوع فى المخالفات الشرعية .

*** وتدور موضاعات المواعظ مجملة حول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومفصلة نراها تدعو إلى حسن الخلق والمعاشرة ، والتحذير من الدنيا الفانية ، والعدل فى الرعية وقضاء حوائجهم والتواضع لهم ، ومراقبة الله ــ عز وجل ــ فى كل الأمور ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، ومحاسبة النفس قبل أن لاينفع الندم ، والتحذير من بطانة السوء ـ ويضيف الإمام مالك والشافعى موضوعا جديدا هو رعاية المهاجرين والأنصار ؛ لأنهم عصب الإسلام ، وسبب جلوس الخلفاء على الكراسى .

---

(١) القصاص والمذكرين ص ٢٤ .
(٢) مالك حياته ، عصره ـ أبوزهرة ص ٦٢ .

طلب عمر بن عبد العزيز النصيحة من محمد الباقر (ت ١١٣ هـ) ، فقال محمد الباقر :

" أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدا ، وأوسطهم أخا ، وكبيرهم أبا ؛ فارحم ولدك ، وصل أخاك ، وبر أباك ؛ وإذا صنعت معروفا فربه " (١) .

وقال محمد بن كعب القرظى (٢) لعمر بن عبد العزيز ، ينصحه بمصاحبة الأخيار ، ويوصيه بالإخلاص فى الحب والمودة ، ويحثه على زيادة المعروف ورعايته :

" إن فيك عقلا وإن فيك جهلا ، فداو بعض ما فيك ببعض ، وآخ من الإخوان من كان ذا معلاة (المعلاة : العلو والشرف) فى الدين ونيه فى الحق ، ولا تؤاخ منهم من تكون منزلتك عنده على قدر حاجته إليك ، فإذا قضى حاجته منك ذهب ما بينك وبينه . وإذا غرست غراسا من المعروف فلا تبقين أن تحسن تربيته " (٣) .

وكان بعض الوعاظ يشترط لوعظه شروطا على الخليفة ، أهمها السمع والطاعة ، والعمل بما يسمع ؛ حتى لايقع فى الإثم والعصيان ، حدث الأوزاعى (٤) قال :

" دخلت على المنصور ، فقال لى ما الذى بطأ بك عنى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذى تريد من ؟ قال : الاقتباس منك ، قلت : انظر ما تقول،فإن (مكحولا) حدثنى عن عطية بن بشير أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

---

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ١٥٧ .

(٢) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظى ، كان أبوه من سبى قريظة . عالم ، ورع ، ثقة ، كثير الحديث كان يحدث فى مسجده فسقط عليه وعلى أصحابه فقتلهم سنة ١١٧ هـ ، وقد أكثر من مواعظه لعمر بن عبد العزيز البيان والتبيين ـ ٢ / ٤٠٨ ـ هامش رقم (٤) .

(٣) عيون الأخبار ٣ / ٧ .

(٤) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى إمام أهل الشام ، ولم يكن بها أعلم منه . ولد ببعلبك سنة ٨٨ هـ ، و توفى سنة ١٥٧ ببيروت . والأوزاعى : نسبة إلى أوزاع ، وهى بطن من ذى الكلاع من اليمن ، وقيل : بطن من همدان ، وقيل الأوزاع : قرية بدمشق ، ولم يكن عبد الرحمن منهم ، وإنما نزل فيهم ، فنسب إليهم ، وهو من سبى اليمن . جمهرة خطب العرب ٣ / ٤٩ هامش رقم (١) .

" من بلغه عن الله نصيحة فى دينيه ، فهى رحمة من الله سبقت إليه فإن قبلها من الله بشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد عليه غضبا ، وإن بلغه شيىء من الحق فرضى فله الرضا ،وإن سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كره الله لأن الله الحق المبين " فلا تجهلن ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولاتعمل بما تسمع ، قال الأوزاعى : فسل على الربيع السيف ، وقال: تقول لأمير المؤمنين هذا ؟ فانتهره المنصور وقال : أمسك " (١) .

وبعد هذا الشرط القاسى الجرىء ، أخذ الأوزاعى فى وعظ المنصور ، وتذكيره بأمر الخلافة وما ينبغى فيها من عدل وإحسان للرعية مستدلا لمواعظه بالقرآن وبأحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومرغبا له فى العدل والتخلى عن زينة الدنيا ، وكان مما قاله له :
" واعلم أن كل مافى يدك لايعدل شربة من شراب الجنة ، ولاثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . :" لقاب قوس أحدكم من الجنة أو قذة(ريش السهم) خيـر له من الدنيا بأسرها " إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم ، فكيف من يتقمصه .... واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف نفسه وعماله ، فذلك له أجر المجاهد فى سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع و رتع عماله، فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله . وأمير يظلف(يكف) نفسه ، ويرتع عماله ، فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله ، فذاك شر الأكياس " (٢) .
ويأخذ الأوزاعى خليفة المسلمين بهذا النصح القاسى ، فيحذره من أمانة الخلافة ، ويذكره برفض النبى الكريم طلب جده العباس لها ؛ لضعفه وشفقته عليه من الجور ، ثم يختم موعظته بتخيير الخليفة بالقبول أو الرفض مع بيان عاقبة كل اختيار ـ وهو يذكرنا بختام رسالة الإمام مالك ، وبختام رسالة أبى يوسف ـ يقول : " هذه نصيحتى إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها فنفسك بخست ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، قال : بلى ، نقبلها ونشكر عليها ، وبالله نستعين " (٣) .

(١) جمهرة خطب العرب٣ / ٤٩ .
(٢) ، (٣) المصدر نفسه ٣ / ٥٠ ، ٥١ .

ويشترط الإمام الشافعي على الرشيد شروطا كثيرة حتى يقبل وعظه ، فقد سأل الرشيد الشافعي الموعظه ، فقـال له الشافعي :
" أن تخلع رداء الكبر عن عاتقك ، وتضع تاج الهيبة عن رأسك ، وتنزع قميص التجبر عن جسدك ، وتفتش نفسك ، وتنشر سرك ، وتلقى جلباب الحياء عن وجهك ، مستكينا بين يدى ربك ، وأكون واعظا لك عن الحق ، وتكون مستمعا بحسن القبول ؛ فينفعنى الله بما أقول ، وينفعك بما تسمع" (١) .

وكما اشترط الشافعي شروطا اشترط الرشيد شرطا ، وهو الإيجاز ، فقبل الشافعي وشمر ذراعية وحشد عقله ، واستحضر بلاغته ، فحذره من الاغترار بالدنيا ، وأمره بإصلاح سره وعلانيته ، والتمسك بالكتاب والسنة، ثم حثه فى وصيته على الاهتمام بالمهاجرين والأنصار ، وبين له سبب ذلك ، وأنهم اصل الدين ، وسبب التمكين فى الخلافة ، قال الشافعي :
" وعليك بالمهاجرين والأنصار (والذين تبوءوا الدار والإيمان) ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، وآتهم من مال الله الذى آتاك ، ولاتكرههم على إمساك عن حق ، ولا على خوض فى باطل ، فإنهم الذين مكنوا لك البلاد ، واستخلصوا لك العباد ، ونوروا الظلمة ، وكشفوا عنك الغمة ، ومكنوا لك فى الأرض ، وعرفوك السياسة وقلدوك الرياسة ، فنهضت بثقلها بعد ضعف ، وقويت عليها بعد فشل ، كل ذلك يرجوك من كان من أمثالهم لعفتهم طمع الزيادة لهم ، فلا تطع الخاصة تقربا إليهم بظلم العامة ، ولاتطع العامة تقربا إليهم بظلم الخاصة لتستديم السلامة " (٢) .

ثم يوجز الشافعي نصيحته فى ختام بليغ ، يحذره فيه من الجور فى الحكم ، فيقول : وكن لله كما تحب أن يكون لك ولأوليائك من العامة من السمع والطاعة ؛ فإنه ماولى أحد على عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه ، وأنت أعرف بنفسك " (٣) .

وقد آتت الموعظة ثمارها ؛ فبكى الرشيد ــ وقد كان فى خلالها يبكى ولايسمع له صوت ـ فلما بلغ نهايتها علا نحيبه وبكى جلساؤه .
وسبق الإمام مالك الشافعي فى هذا الموضوع ، حين وصى المهدى فقال :

---

(١) ، (٢) ، (٣) حلية الأولياء ٩ / ٨٩ وما بعدها ـ نقلا عن : هارون الرشيد ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

" أوصيك بتقوى الله وحده والعطف على اهل بلد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجيرانه ، فإنه بلغنا أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم . قال: " المدينة مهاجرى ، وبها قبرى ، وبها مبعثى وأهلها جيرانى ، وحقيق على أمتى حفظى فى جيرانى فمن حفظهم كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة " (١) .

وواضح مما قدمنا من هذه الموازنة أن الشافعى كان أبلغ فى حثه على العناية بالمهاجرين والأنصار ، حيث لم يكتف بإيراد الحديث الشريف ، وإنما فصل القول فى أسباب حب المهاجرين والأنصار ، فأبكى الرشيد عندما وصل لهذا الفصل من الموعظة .

ومن الزهاد الواعظين ، عمرو بن عبيد ، وكانت له مكانة فى قلوب خلفاء بنى العباس ، وخصوصا المنصور ــ فكان يفسح له فى مجلسه ، ويطلب نصيحته ووعظه ، وكان عمرو بن عبيد يغلظ له القول ،والمنصور يقبل ذلك.

دخل عمرو بن عبيد علىالمنصور ، فطلب منه الموعظة ، فحذره من الدنيا والاغترار بزخرفها فى إيجاز بليغ ، فقال : " يا أمير المؤمنين ،إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها وإن هذا الذى فى يديك ، لو بقى فى يدغيرك لم يصل إليك . فاحذر ليلة تمخض عن يوم لاليلة بعده . فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع : يا عمرو ،غممت أمير المؤمنين فقال عمرو :
إن هذا صحبك عشرين سنة ، لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا . وما عمل وراء بابك بشىء من كتاب الله ولاسنة نبيه ، قال أبو جعفر : فما أصنع، خاتمى فى يدك ، فتعال وأصحابك فاكفنى ، قال عمرو : ادعنا بعدلك، تسخ أنفسنا بعونك ،ببابك ألف مظلمة ،اردد منها شيئا نعلم أنك صادق "(٣).

---

(١) مالك ــ عبد الحليم الجندى ص ٢٥٤ .
(٢) هو أبو عثمان عمرو بن عبيد ، مولى لبنى العدوية من بنى تيم ولد سنة ثمانين ، وتوفى سنة ١٤٤ هـ من كبار أئمة المعتزلة .
(٣) جمهرة خطب العرب ٣ / ٤٥ .

ونستطيع أن نفيد من هذه الموعظة أمورا عديدة ، منها : جرأة عمرو بن عبيد ، وقسوة كلامه ، وعدم الاهتمام ببطانة السوء ، حيث لم يابه للربيع ، وإنما وجه كلامه للخليفة ووجهه لحاجبه المنافق الذى لم ينصحه مرة واحدة منذ عشرين سنة ـ مدة عمله ـ ولم يعمل بكتاب الله ولا بسنة رسوله .

كما نفيد منها عرض المشورة على عمرو الذى رفض المناصب ، ووجه الخليفة للعدل ، ولإنهاء المظالم ببابه ؛ فذلك عنوان عدله وحسن سيرته .

تلك هى أهم الموضوعات التى دارت حولها المواعظ ، وقد كان الخلفاء يطلبون كثيرا منها من الفقهاء والزهاد ، كما كان الفقهاء والزهاد يتطوعون بإيراد بعضها من غير طلب لهذا ؛ إيمانا منهم بدور العلماء ، وأنهم مبلغون عن رب العالمين ، وهم أمناء الأمة فى الأرض وناطقون عن أفراد الأمة .

رحم الله الفقهاء والزهاد جزاء ما قدموا من نصح وموعظة ؛ ابتغاء مرضات الله ، وطلبا لثوابه ومغفرته ! .

المبحث الثانى

الجوانب الفنية فى المواعظ

١ - اللغة والأسلوب .

لم تختلف لغة المواعظ كثيرا عن لغة الرسائل ، فجاءت الألفاظ عربية فصيحة ، ووقعت من المعانى موقعها ، فهى إما زجر عن خطأ أو أمر بمعروف ، فكثرت الألفاظ التى تعبر عن المعروف ووسائله ، كما كثرت الألفاظ التى تنهى عن المنكر ووسائله ، مثل : (الحق ، الباطل ، الحرام ، الحلال ، المفسد ، العدل ، الظلم ، الجنة ، النار ، الخير ، الشر ، أداء الفرائض ، اجتناب المحارم ، المعروف ، المنكر ، البر ، الرحمة) .

ويلاحظ فى المواعظ - غرابة بعض الألفاظ ، وحاجتها إلى التفسير ، كما فى موعظة الأوزاعى للمنصور ، فجاء فيها قوله : فتيلها ، نقيرها ، رهقا ، قذة، حصيف ، الغرة ، يظلف) وهى تحتاج إلى تفسيرها وربطها بمعناها التى سيقت له . ولكن معظم الألفاظ واضحة سهلة مع فصاحتها ووقوعها موقعا حسنا من النظم الأسلوبى .

* أما الأسلوب ، فجاء قويا مترابطا ، وزاوج الوعاظ فيه بين الخبر والإنشاء وإن غلب عليه الإنشاء من أمر ونهى ونداء - وهذا الأسلوب يتفق وموضوع الوعظ الذى يحتاج لمثل هذه الأساليب الإنشائية التى ينشئها المتحدث إنشاء غير أنه يحتاج إلى أسلوب الخبر ؛ لسرد حادثة أو سوق دليل أو خبر يدعم قوله .

* ظهر نوع من الأساليب لم يظهر فى الرسائل ، وهو أسلوب الحوار ، حيث كانت الموعظة تسير بأسلوب الحوار بين الواعظ والموعوظ - وهذا الأسلوب لايتفق مع الرسائل وإنما يتفق والمواعظ ؛ لما فيه من المواجهة بين الواعظ والموعوظ ، وهنا تظهر براعة الواعظ فى ارتجال الإجابة التى

يجيب بها عن سؤال السائل (الخليفة) ، وتتفاوت عقول الوعاظ فى الحجة والإقناع ، وما يتركه الواعظ من أثر فى نفوس سامعيه ، وكان معظمهم يترك السامعين فى نحيب وبكاء من هول ما يسمعون ، ومن بلاغة ما يسوقه إليهم من حجج وبراهين .

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبى حازم (١) الأعرج ، وعنده ابن شهاب ــ ثم دار الحوار بين سليمان وأبى حازم :

" قال سليمان : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : فى المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وماذك ؟ قال : لاتأخذ الأشياء إلا من حلها ، ولاتضعها إلا فى أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك . قال عظنى أبا حازم.
قال : اعلم أن الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك .
قال : يا أبا حازم ، أشر على . قال : إنما أنت سوق ، فما نفق (راج) عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما شئت .
قال : مالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتنى فتنتنى ، وإن أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولاعندى ما أخافك عليه . قال فارفع حاجتك قال : رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت " (٢) .
ولم يكتف بعض الزهاد بجودة الحوار والبراعة فى المنطق ، بل كان يعمد إلى حسن الحجاج ، وسوق الشواهد الحية من خلال حواره ؛ فيزداد الموعوظ خوفا ووجلا ، ويقترب قلبه من الإجابة للدعوة فلا يملك دموعه ، ولايستطيع لها ردا ، بعث هارون الرشيد إلى ابن السماك ليسمع موعظته ، ودار بينهما حوار أجاب فيه ابن السماك على كلام هارون حتى أبكاه ، فلما بكى هارون دعا بماء واستسقى فأتى بقدح فيه ماء ، وهنا وجد ابن السماك فرصته ليحاجج هارون حجاجا منطقيا واقعيا ، قال ابن السماك :

---

(١) هو سلمة بن دينار ، أبوحازم المدنى الأعرج ، عابد صالح ، زاهد . كان ثقة كثير الحديث . توفى سنة ١٤١ هـ فى خلافة المنصور ــ انظر : البيان والتبين ١ / ٣٣٩ هامش رقم (٢) .
(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤١٨ .

" يا أمير المؤمنين ، أكلمك قبل أن تشرب هذا الماء ، قال ما أحببت ، قال : يا أمير المؤمنين ، لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفتديها بالدنيا وما فيها حتى تصل إليك ؟ قال : نعم . قال : فاشرب ريا بارك الله لك فلما فرغ من شربه قال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة عنك إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفتدى ذلك بالدنيا وما فيها ؟ قال : نعم قال : يا أمير المؤمنين ، فما تصنع بشىء وشربة ماء خير منه ؟ فبكى هارون واشتد بكاؤه . فقال يحيى بن خالد : ياابن سماك ، قد آذيت أمير المؤمنين فقال له : وأنت يا يحيى فلا يغرنك رفاهية العيش ولينه " (١) .

فهارون لم يشتد بكاؤه إلا بعد هذه المحاجة القوية التى التقطها ابن السماك من واقع الحال ، واستطاع أن يوظف شربة الماء فى تزهيد هارون فى الدنيا وما فيها ، كما ساعد على ذلك إخلاص ابن السماك وصدق حديثه وفعاله . وقد قال ابن الجوزى : " ينبغى للواعظ أن يكون فقيها فى دين الله ، عالما بالعربية واللغة ، فصيح اللسان ومدار ذلك كله على تقوى الله - عز وجل وأنه بقدر تقواه يقع كلامه فى القلوب . وقال بعض السلف :إن الموعظة إذا خرجت من قلب الصادق وقعت فى القلب " (٢) .

وتميزت مواعظ الفقهاء والزهاد للحكام بميزات كثيرة منها : " فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى ، وإثارة الشعور ، وإذعان النفس ، فكانت تبهر سامعها بما أشاعوافيها من الإيمان الشديد والتقوى .... وهذه الوصايا والمواعظ للحكام انطبعت بالطابع الدينى الخالص حتى وإن كانت تعالج الكثير من الأمور الدنيوية فإن معالجتها هذه جاءت من الباعث الدينى فى حث الحاكم ودعوته إلى العناية بالرعية والرفق بهم ، وتدبير أمور حياتهم المختلفة " (٣) .

---

(١) الذهب المسبوك فى وعظ الملوك ص ٢٢٠ .
(٢) القصاص والمذكرين - ابن الجوزى ص ٢٢ .
(٣) الوصايا فى الأدب العربى القديم . د / سهام الفريح ص ١٦٠ ، ١٦١ - مكتبة المعلا - الكويت - الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م .

لم يقصد الوعاظ إلى المحسنات قصدا ؛ ولهذا قلت فى مواعظهم ، وما جاء منها إنما جاء عفوا من غير كد ذهن ، ولا إرهاق خاطر ؛ فوقعت موقعا حسنا من القول الذى سيقت فيه ؛ وذلك لانشغال الوعاظ بما هم فيه من قول مرتجل فى معظم الأحيان - أو الرد على أسئلة لم يسمعوها من ذى قبل حتى يعدوا لها الأجوبة .

ووقعت بعض المحسنات متمثلة فى الطباق ، والمقابلة ، وتوافق نهاية الجمل المسجوعة ، مثل قول محمد بن كعب القرظى :
" خرجوا من الدنيا مرملين ، لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة ، ولا لما كرهوا جنة ، ... افتح الأبواب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، ورد الظالم " (١) .

فالطباق بين (أحبوا ، كرهوا) والسجع (جنة ، عدة ، الأبواب والحجاب) وقع موقعا حسنا ، وزادا المعنى جمالا والموعظة قيمة وفنا .
ووقع السجع فى كلام ابن السماك مع اتزان الجمل ، واتفاقها طولا وقصرا فزاد المعنى رونقا وبها ، وذلك فى قوله للرشيد :
" فاحذر المقام بين يدى الله - عز وجل - والوقوف بين الجنة والنار حين يؤخذ بالكظم ، وتزل القدم ، ويقع الندم ، فلا توبة تقبل ، ولا عثرة تقال ، ولاتقبل فداء بمال " (٢) .

وخلت كثير من المواعظ خلوا تاما من المحسنات البديعية ، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من انشغال الواعظ بمعانيه وأثرها أكثر من انشغاله بتنميق الألفاظ وتزيين جمله ، كما أن الارتجال - فى كثير منها - كان له الأثر الكبير فى ذلك، بخلاف الرسالة التى يراجعها كاتبها ، بل يكتبها لتقرأ وتبقى دليلا على بلاغته وحسن معرفته بالعربية وأسرارها .

---

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٢٢ .
(٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٩٢ .

ولا يتعارض هذا الحكم مع ماذهب إليه الدكتور / شوقى ضيف ـ رحمه الله من أن كثيرا من وعاظ العصر الأموى بلغوا من الحذق " أن جعلوا المواعظ كلها سجعا خالصا كأسرة الرقاشيين ، وهى أسرة فارسية كانت تحترف القصص فى هذا العصر كما كانت تحترف السجع " (١) .

فكثير من الوعاظ لم يكثروا من استخدام السجع ـ خصوصا فى مواعظ الخلفاء التى ندرسها ـ وربما كانت مواعظهم وخطبهم العامة تحوى كثيرا منها ، ومع ذلك فإنهم أتقنوا وجوه البلاغة ، وعرفوا أسرار العربية ، ولعل مما يدل على ذلك أن " أقدم النصوص التى تتصل بماهية البلاغة تضاف إلى واحد منهم هو عمرو بن عبيد ، فقد روى الجاحظ أنه قيل له : ما البلاغة ؟ فقال السائل : ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك ، قال السائل :
ليس هذا أريد . قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ فى حسن إفهام .
قال: نعم ، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين ، وتخفيف المئونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعنى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ الحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة ، على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب " (٢) .

٢ ـ التكرار ، والاستشهاد بالقرآن والسنة

قلت ظاهرة التكرار (تكرار الجمل والكلمات المفردة) فى المواعظ بصورة ملحوظة ؛ حيث خلت كثير من المواعظ منها تماما ، فلم نعد نقرأ (اعلم) أو (يا أمير المؤمنين) بكثرة كما نقرؤها فى الرسائل ، فالإمام الشافعى ذكر جملة (يا أمير المؤمنين) مرة واحدة فى بداية موعظته الطويلة ، ولم يذكرها الإمام مالك فى مواعظه، ومما يلفت النظر تكرار هذه الجملة (يا أمير المؤمنين) فى مواعظ الأوزاعى الطويلة حيث كررها أربع مرات ، وكرر كلمة (اعلم) ثلاث مرات فيها . وذكر ابن السماك قول (أمير المؤمنين) مرة واحدة فى بداية إحدى مواعظه .

---

(١) المرجع نفسه ص ٩٤ .
(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٢١٧ ـ نقلا عن هارون الرشيد ص ٧٩ .

ومن الملاحظ تصدير الموعظة بقول الواعظ " أوصيك " خصوصا إذا بدأ الخليفة كلامه بقوله :

" أوصني " كما كان كثير من الفقهاء والزهاد يدخلون في مواعظهم مباشرة من غير مقدمات ، ومن دون التفات للموعوظ ولمن حوله ، وكأن الذى يعنيهم هو إفراغ ما فى جعبتهم من نصائح حتى يردوا الخليفة عن غيه ، ويرسموا له طريق الرشاد .

أما عن الاستشهاد بالقرآن والسنة ، فوقع كثيرا فى كلام الزهاد والفقهاء ، فلم تخل كثير من المواعظ من آية من كتاب الله ، أو حديث من أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومما يلفت النظر إكثار الأوزاعى فى وصيته الطويلة للمنصور من الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وهذا يذكرنا برسالة الإمام مالك سابقا ، ويلفتنا إلى اتفاق الفقهاء فى المنهج ـ كتابة ووعظا ـ فهم أقدر الناس على حفظ القرآن والأحاديث فتفيض على ألسنتهم وأقلامهم فى أثناء الوعظ والتوجيه .

وقد خلت بعض المواعظ من القرآن والسنة ، واكتفى أصحابها بإيراد المعانى الدينية ، أو الاسترشاد بمعانى الأحاديث ، أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ خصوصا إذاكانت الموعظة قصيرة جدا ـ مثل قول سفيان الثورى للمنصور وقد قال له :

" عظنى أبا عبد الله . قال : وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت ؟ "(١) .
ومثل وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز قال :
" أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدا وأوسطهم أخا وكبيرهم أبا ؛ فارحم ولدك ، وصل أخاك ، وبر أباك ؛ وإذا صنعت معروفا فربه " (٢) .

---

(١) العقد الفريد ١ / ٨١ .
(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ١٥٧ .

وكان بعض الوعاظ والزهاد يكثر من إيراد الشواهد القرآنية ، ويبالغ فيها ، كما فعل عمرو بن عبيد عندما طلب منه المنصور موعظته ، فقال :
" أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم والفجر وليال عشر حتى أتى على آخرها فبكى المنصور بكاء شديدا ثم قال زدني ... فأخذ في وعظه " (١) .

وقد تكون الموعظة موجزة وتحمل آيات القرآن كموعظة ابن السماك التى طلبها منه هارون وأمره بالإيجاز فقال له :
" عظني وأوجز ، فقال ابن السماك : كفى بالقرآن واعظا يا أمير المؤمنين قال الله — عز وجل — : " ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون " فهذا وعيد لمن طفف في الكيل فما ظنك بمن أخذه كله " (٢) .

ولابن السماك نفسه موعظة مع هارون خلت من القرآن والسنة ، مما يجعلنا نوقن بأن الموقف كان يملي الموعظة على الواعظ فهو مرتبط بالحال والحادث ، فلكل حادث حديث كما يقال .

٣ ـ الوحدة الموضوعية .

ليس للموعظة أسس للبناء الفني كما هو الحال في الرسالة أو الخطبة ، وإنما هى كلام يدور حول النصح والإرشاد يلقيه الفقيه أو الزاهد في وجه الخليفة ومن يحضر مجلسه بمناسبة وبغير مناسبة ، كأن يحج الخليفة ، أو يرسل للواعظ طلبا لسماع النصح والتوجيه ، أو يتطوع الزاهد لمعرفته بواجب العلماء فيبلغ الخليفة بما يراه صوابا له ولرعيته ـ كما فعل صالح بن عبد الجليل مع المهدى ـ .

---

(١) الذهب المسبوك ص ١٩١ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٩ .

وقد دارت المواعظ حول الأمربالمعروف والنهى عن المنكر إجمالا ، وتحققت الوحدة الموضوعية فى ذلك تحققا كاملا ؛ واما فى تفصيل هذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فنلاحظ تحقق الوحدة الموضوعية فى كثير من المواعظ ، حيث يعمد الواعظ (الفقيه أو الزاهد) إلى لون واحد من ألوان الأمر بالمعروف أوالنهى عن المنكر وقصر موعظته عليه ،كما تتشعب الموعظة فى بعض الأحيان فلا يستطيع الواعظ جمعها تحت عنوان واحد فنراها مجموعة من الأوامر والنواهى التى لا يربط بينها إلا جملة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠

فمن المواعظ التى تحققت فيها الوحدة مع التفصيل'وصية الإمام مالك للمهدى عندما قال له:أوصنى ،فقال له الإمام مالك :
" أوصيك بتقوى الله وحده،والعطف على أهل رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وجيرانه،فإنه بلغنا أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال:(المدينة مهما جرى،وبها قبرى،وبها مبعثى،وأهلها جيرانى،وحقيق على أمتى حفظى فى جيرانى،فمن حفظهم كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة) "٠ (١) .

فالموعظة تركزت حول الإحسان إلى أهل المدينة من أهل وجيران لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-ومن مهاجرين وأنصار،وقد قدم الإمام مالك لذلك بالحث على التقوى وهو عنصر مهم من عناصر السمع والطاعة والعمل بحديث الرسول الكريم،كما استشهد بالحديث الذى يدعم وصيته،فجاءت الوصية موضوعا واحدا؛ولهذا كان لها الأثر فى نفس الخليفة الموعوظ،فذكرت المصادر أنه على"أثر هذه الوصية أخرج المهدى عطاءا كثيرا،وطاف بنفسه على دور المدينة،ولما أراد النزوح(السفر) دخل عليه مالك،فقال له الخليفة:إنى محتفظ بوصيتك التى حدثتنى بها،ولئن سلمت ما غبت عنهم" ٠ (٢) .
ومن ذلك أيضا،وصية محمد بن كعب القرظى لعمر بن عبد العزيز،وتركزت حول التنفير من عرض الدنيا الزائل،والعمل ليوم الحساب بالعدل،قال محمد بن كعب:

(١) مالك-أبو زهرة ص٦٣.
(٢)المرجع السابق ص ٦٣.

"إنما الدنيا سوق من الأسواق،فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم،وكم من قوم قد غرهم مثل الذى أصبحنا فيه حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا من الدنيا مرملين(فقراء)، لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة ، ولا لما كرهوا جنة، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم،فانظر الذى تحب أن يكون معك إذا قدمت،فقدمه بين يديك حتى تخرج إليه، وانظر الذى تكرهه أن يكون معك إذا قدمت،فابتغ به البدل،حيث يجوز البدل، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك، ترجو جوازها عنك. يا أمير المؤمنين،افتح الأبواب،وسهل الحجاب، وانصر المظلوم،ورد الظالم".(١) .

ومن المواعظ التى تحققت فيها الوحدة الموضوعية تحققا كاملا،موعظة الأوزاعى للمنصور،فهى مع طولها- تركزت حول عنصر واحد ألا وهو:أمانة الخلافة،وظهرت براعة الأوزاعى الفنية فى تشعيب هذا العنصر وتفريعه والدوران حول أسسه وسبله ، فجاءت الوصية(الموعظة) قطعة فنية واحده،لا يحس المتلقى فيها بخلل أو خروج عن الموضوع الأصلى .
بدأ الأوزاعى موعظته بالحديث عن أمانة الخلافه وصعوبتها وما يتبعها من محاسبه شديدة، مستدلا لذلك بالأحاديث النبوية،قال:"إنك قد أصبحت من هذه الخلافه بالذى أصبحت به،والله سائلك عن صغيرها،وفتيلها ونقيرها،ولقد حدثنى عروة بن رويم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال:
(ما من راع يبيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة) فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرا، ولما استطاع من عوراتهم ساترا، وبالقسط فيما بينهم قائما، لا يتخوف محسنهم منه رهقا، ولا مسيئهم عدوانا،فقد كانت بيد رسول الله-صلى الله عليه وسلم- جريدة يستاك بها ،ويردع عنه المنافقين، فأتاه جبريل فقال:(يا محمد،ما هذه الجريدة بيدك!اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا) فكيف من سفك دماءهم، وشقق أبشارهم،وأنهب أموالهم؟ياأمير المؤمنين،إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر،دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فهبط جبريل فقال:
(يا محمد،إن الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمتك)".(٢) .

---

(١)جمهرة خطب العرب ٢/٢٢٢٤.
(٢)جمهرة خطب العرب ٣/٤٩،٥٠.

وبعد هذه المقدمة الإنذارية التوضيحية،دخل الأوزاعى فى طريق آخر من طرق الإنذار والتخويف من خيانة أمانة الخلافة، فزهد الخليفة فى الملك،وعرض عل سمعه وعقله صورا من صور العذاب يوم القيامة التى لا تكون الا للظالم، قال:"واعلم أن كل ما فى يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة، ولا ثمرة من ثمارها، قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم - :
(لقاب قوس أحدكم من الجنة، أوقذة خير له من الدنيا بأسرها) ،

إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها،ولو بقى لمن قبلك لم يصل إليك ياأمير المؤمنين،ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم،فكيف من يتقمصه؟ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لأجنه،فكيف بمن يتجرعه؟ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب،فكيف من سلك فيها،ويرد فضلها على عاتقه،وقد قال عمر بن الخطاب:
(لا يقوم أمر الناس إلا حصيف الوقدة،بعيد الغيرة لا يطلع الناس منه على عورة،ولا يحنق فى الحق على جرة، ولا تأخذه فى الله لومة لائم)"(١) .

ثم أخذ فى بيان أنواع السلاطين والأمراء،وما يكونون عليه فى ألوان الحكم؛ ليختار الموعوظ أحسنها، فقال:" وأعلم أن السلطان أربعة:أمير يظلف نفسه وعماله،فذلك له أجر المجاهد فى سبيل الله،وصلاته سبعون ألف صلاة،ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف،وأميريرتع ويرتع عماله،فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله،وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله،فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره،وأمير يرتع ويظلف عماله،فذاك شرالأكياس".(٢) .

وختم الأوزاعى موعظته بما بدأ به كلامه من التخويف من خيانة أمر هذه الأمة والحث على العدل وعدم الاتكال على قرابته من الرسول الأعظم،قال:"واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم،عرض السماوات والأرض والجبال،فأبين أن يحملنه وأشفقن منه،وقد جاء عن جدك فى تفسير قول الله عز وجل-:

---

(١)المصدر السابق٣/٥٠.
(٢)المصدر نفسه٣/٥٠،٥١.

(لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) أن الصغيرة التبسم،والكبيرة الضحك،وقال:فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدى؟ فأعيذك بالله أن يخيل إليك أن قرابتك برسول الله- صلى الله عليه وسلم- تنفع مع المخالفة لأمره ،فقد قال-رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:
(يا صفية عمة محمد،ويا فاطمة بنت محمد،استوهبا أنفسكما من الله،إنى لا أغنى عنكما من الله شيئا،وكان جدك الأكبر سأل رسول الله-صلى الله عليه وسلم-إمارة،فقال:(أى عمر،نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها)نظر لعمه،وشفق عليه أن يلى فيجور عن سنته جناح بعوضة،فلا يستطيع له نفعا،ولا عنه دفعا".(١) .

فالموعظة-على طولها-تحققت فيها الوحدة الموضوعية،وجاءت متماسكة مترابطة الفقرات فى تسلسل يوحى بالوحدة فى الموضوع.

وأما عن المواعظ التى تشعبت فيها الموضوعات،فيمثلها موعظة الإمام الشافعى التى ألقاها بين يدى هارون الرشيد،فهى وإن دارت حول التقوى والعدل إلا أنها أبحرت فى أمواج متلاحقة من وجوه التقوى وأسباب العدل؛ ولهذا نعدها من المواعظ التى لم تتحقق فيها الوحدة الموضوعية بالمنظور السابق الذى أشرنا إليه.

بدأ الأمام الشافعى موعظته بالحث عن التحلى ببعض الفضائل.كشكر النعم،وتقوى الله فى السر والعلانية،والسماع لصوت الحق،وطاعة الله،فقال:"اعلم أن الله-جل ثناؤه-امتحنك بالنعم،وابتلاك بالشكر،وفضل النعمة أحسن لتستغرق بقليلها كثيرا من شكرك،فكن لله تعالى شاكرا،ولآلائه ذاكرا،تستحق منه المزيد،واتق الله فى السر والعلانية تستكمل الطاعة،واسمع لقائل الحق وإن كان دونك تشرف عند الله،وتزدد فى عين رعيتك،واعلم أن الله-سبحانه وتعالى- يفتش سرك،فإن وجده بخلاف علانيتك شغلك بهم الدنيا،وفنق لك ما يزلق عليك،واستغنى الله والله غنى حميد،وإن وجده موافقا لـ نيتك أحبك وصرف هم الدنيا عن قلبك،وكفاك مؤونة نظرك لغيرك،وترك بك نظرك لنفسك، وكان المقوى لسياستك .

(١)المصدر السابق٣/١٥.

ولن تطاع إلا بطاعتك الله تعالى،فتّن له طائعا تكتسب بذلك السلامة فى العاجل.وحسن المنقلب فى الأجل:(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)".(١).

وانتقل الشافعى بعد ذلك إلى مجموعة أخرى من الأوامر والنواهى،فحذره الله-عز وجل-وأمره بالعمل بالكتاب والسنة،واقتفاء أثر الخلفاء الراشدين فى توزيع الخراج على الرعية بالعدل وعدم التلبيس عليهم فى ذلك،قال:"واحذر الله حذر عبد علم مكان عدوه،وغاب عنه وليه،فتيقظ خوف السرى،لا تأمن من مكر الله لتواتر نعمه عليك،فإن ذلك مفسدة لك،وذهاب لدينك،وعليك بكتاب الله الذى لا يضل المسترشد به،ولن تهلك ما تمسكت به فاعتصم بالله تجده تجاهك،وعليك بسنة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-تكن على طريقة الذين هداهم الله فبهداهم اقتده،وما نصب الخلفاء المهديون فى الخراج والأرضيين والسواد والمساكن والديارات،فكن لهم تبعا وبه عاملا راضيا مسلما ، واحذر التلبيس فيه فإنك مسئول عن رعيتك " (٢) .

وانتقل الشافعى فى ختام الموعظة إلى وجه آخر من وجوه العدل ، وهو الاهتمام بالمهاجرين والأنصار ، فأخذ يحثه على الإحساس إليهم ، مبينا فضلهم فى الدين والدنيا والآخره ، فقال :
" وعليك بالمهاجرين والأنصار (والذين تبوءوا الدار والإيمان) فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، وآتهم من مال الله الذى آتاك ، ولاتكرههم على إمساك عن حق ، ولاعلى خوض فى باطل ؛ فإنهم الذين مكنوا لك البلاد، واستخلصوا لك العباد ، ونوروا الظلمة وكشفوا عنك الغمة ، ومكنوا لك فى الأرض ، وعرفوك السياسة ، وقلدوك الرياسة ، فنهضت بثقلها بعد ضعف ، وقويت عليها بعد فشل ، كل ذلك يرجوك من كان من أمثالهم لعفنهم طمع .
الزيادة لهم ، فلا تطع الخاصة تقربا إليهم بظلم العامة ، وتطع العامة تقربا إليهم بظلم الخاصة لتستديم السلامة " (٣) .

---

(١) ، (٢) هارون الرشيد ص ١٩٧ ، ١٩٨ .
(٣) هارون الرشيد ص ١٩٨ .

وجاء الختام النهائى حاثا على عدل الرعية فقال " وكن لله كما تحب أن يكون لك ولأوليائك من العامة السمع والطاعة فإنه ما ولى أحد على عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه ، وأنت اعرف بنفسك " (١) .

فالموعظة ـ كما هو واضح ـ تدور حول العدل والتقوى والعمل الصالح ، إلا أنها متشعبة الموضوعات ، بخلاف ما ذكرنا من نماذج تحققت فيها الوحدة الموضوعية ؛ وربما كان ذلك بسبب تدفق النصائح على لسان الشافعى ، فاكتفى الشافعى بالإشارة إلى رءوس الموضوعات المهمة التى تهم الحاكم والمحكوم ، فانفرط منه عقد الموضوع ، وتداخلت عليه السبل . ولكنها ـ على أية حال ـ موعظة جامعة تدل على عقل واع وصدق فى النية ، وإخلاص فى التوجية ؛ مما كان سببا فى بكاء هارون بعد سماعها ! .

٤ ـ الصورة والخيال .

لم يقصد الفقهاء والزهاد إلى رسم الصور قصدا ، بل كان قصدهم التذكير بالحال والمآل ؛ فجاءت مواعظهم حقائق ، تصف الحال ، وتحذر من الانزلاق فى مهاوى الرذيلة من ظلم وتضييع ، وابتعاد عن طريق الجادة ؛ وعلى الرغم من ذلك فلم تخل مواعظهم من الاستعانة بالصورة والخيال فى تثبيت الحقائق ، أو تقريب البعيد إلى ذهن الموعوظ والمتلقى . وصف أبو حازم الأعرج حقيقة أمر الخلافة من غير الاتكاء على الخيال ، فقال : اعلم أن الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، ووصف قدرة الله فقال : رفعت حاجتى إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت . (٢) .

ووصف ابن السماك موقف هارون بين يد الله تعالى فقال :
اتق الله وحده لا شريـــــك له ، واعلم أنك واقف غدا بين يدى الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لاثالث لهما : جنة أو نار (٣) .

---

(١) هارون الرشيد ص ١٩٨ .
(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤١٨ .
(٣) المصدر نفسه ٣ / ١٠٠ .

ووصف الأوزاعي شدة العذاب فقال :
ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم ، فكيف من يتقمصه ؟ ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لآجنه ، فكيف بمن يتجرعه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف من سلك فيها ، ويرد فضلها على عاتقه ؟ (١) .
أما عن الاستعانة بالصورة والخيال فقد استعانوا بالكناية والاستعارة والتشبيه ، وجاءت الكناية بكثرة في صورهم التي رسموها ؛ لأنها تناسب مواقفهم من تهويل أو تصغير،كما جاء خيالهم معتدلا غير جانح،فاكتملت صورة الحقائق،واتزنت المواقف، وقربت إلى الأذهان،فبكى معظم الخلفاء ومجالسيهم في نهاية المواعظ للتأثر بما قيل وبما رسم من صور.

*استخدم أبو حازم الأعرج الكناية في رسم الصورة التي تهون من شأن العبد،وترفع من قدر الخالق،فقال مخاطبا هارون:"إن أدينتني فتنتني،وإن أقصيتني أخزيتني،وليس عندك ما أرجوك له،ولا عندي ما أخافك عليه".
فجمال الموقف نابع من جمال الصورة،واكتمال أدواتها المتمثلة في الكناية اللطيفة التي توحي بفقر العبد- حاكما كان أو محكوما-.

واستخدم الإمام مالك الكناية في حث هارون على الاقتداء بالخلفاء الراشدين في التواضع، فوازن بين حال الرشيد وحال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:
"بلغني أن عمر بن الخطاب كان في فضله وقدمه ينفخ لهم(للرعية)على الرمادة النار تحت القدر حتى يخرج الدخان من لحيته،وقد رضي الناس منكم بدون هذا".

فجمال الصورة تبدو في التكنية عن التواضع برسم هذا المشهد المثير حقا،وما كان الكلام يؤتى ثماره بالتصريح،وإنما كمنت بلاغته في هذا الرسم الجيد-صورة الإمام الملتحي الذي يجلس مائلا تحت القدر ينفخ النار حتى ينضج الطعام [illegible]عيته غير مبال بالدخان الذي يغبر تلك اللحية الذكية!.

(١) المصدر نفسه ٣ / ٥١ .

وزهد محمد بن كعب القرظى عمر بن عبد العزيز فى الدنيا بما فيها من ملك، فاستخدم الكناية فى رسم ما يرجوه لموعوظه،فقال:
"ولا تذهبن الى سلعة قد بارت على غيرك،ترجو جوازها عنك".

وبرع محمد الباقر في استخدام الكناية وتوظيفها فى حث عمر بن عبد العزيز على العدل في الرعية،والرحمة بجميع فئاتها،فقال:
"اوصيك ان تتخذ صغير المسلمين ولدا،وأوسطهم أخا،وكبيرهم أبا،فارحم ولدك،وصل أخاك،وبر أباك،وإذا صنعت معروفا فربه (أى:أدمه)".

وأبكى ابن السماك هارون الرشيد:لبراعته فى الرسم بالكناية،وجعلها منطلق البلاغة التى تصف هول القيامة والحساب،فى قوله:
"فاحذر المقام بين يدى الله-عز وجل-والوقوف بين الجنة والنار،حين يؤخذ بالكظم،وتزل القدم،ويقع الندم،فلا توبة تقبل،ولا عثرة تقال،ولا يقبل فداء بمال".

** واستخدم الفقهاء والزهاد الاستعارة في رسم صورهم ، وإيصال مواعظهم للخلفاء ، فأثرت فيهم ، وأتت ثمارها في كثير من مواقفهم الجادة .
فمن الاستعارات البليغة ، قول الشافعي يصف الخلافة :
" فنهضت بثقلها بعد ضعف".

حيث شبه الخلافة بالشئ الثقيل الذي لا يستطيع الرجل القوي القيام به ، ثم حذف المشبه به وأبقى لها صفة من صفاتها وهي الثقل ، وجعل المهاجرين والانصار سببا في قيام هارون بهذا الحمل الثقيل ؛ وما كان هارون ليلتفت إلي هذا الجانب لولا تلك الاستعارة البديعة التي رسم بها الشافعي صورتة الرائعة.

وفطن الأوزاعي لقيمة الاستعارة ، فرسم بها صورة الأمراء في التقسيم الجيد الذي عرضهم عليه ، ووازن بين الحقيقة والخيال في بيان ما يكون عليه الأمراء من ظلم وعدل ، فقال :
" وأمير رتع ورتع عماله ، فذاك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله ، فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله ، فذاك شر الأكياس" .
فلولا توظيف الاستعارة لما تبين شره الأمراء في اجتياح أموال الرعية من غير حساب كما ترتع البهيمة في الزروع من غير رادع ولا عقل.

*** ووظف بعض الفقهاء والزهاء التشبيه في رسم الصورة وبيان حقيقة ما يصبون إليه من ترغيب فى خير أو ترهيب من شر ، فاستخدمه أبو حازم الأعرج فى رسم صورة ذهاب الملك بالسرعة التي جاء بها ، فقال لسليمان بن عبدالملك :
" اعلم أن الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك" .

فالجزء الأول من الوعظة خلا من التصوير ، واستعان به أبو حازم في إكمال رسم الصورة التي ينسل بها الملك من بين يدي المالك ، كما استعان بأدوات التشبيه في كونه صورة تمثيلية مركبة من الحال والواقع.

واستعان أبو حازم مرة أخري بالتشبيه البليغ ، فقال :
" إنما أنت سوق ، فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت ".

فجمال التشبيه بدا في اختيار مفرداته ، فالمشبه هو سليمان نفسه ، والمشبه به سوق بخسارتها وربحها ، ووجه الشبه : بضاعة السوق بنوعيها (الخير والشر) وعلى المشبه (سليمان) اختيار ما يناسبه من بضاعة الدنيا .
واتكأ الإمام الشافعي علي التشبيه في رسم صورة المتقي الخائف ، فعرض بين يدي هارون تلك الصورة التي يرجوه أن يكون فيها ، فقال له حاثا إياه على خوف الله:
" واحذر الله حذر عبد علم مكان عدوه ، وغاب عنه وليه ، فتيقظ خوف الردي".

فهذه صورة رائعة ، رسمت عبدا خاف من شئ ، وقد علم مكان العدو ، وغاب عنه الولي ، فبات يقظا كي لا يقع في الردى.

وجمال التشبيه بدا في توابع المشبه به (صفاته) التي أكملت صورة الخوف وأحاطت بجوانبه ، وكشفت عن أسبابه ؛ فكان الوعظ بالتشبيه سببا من أسباب تأثر هارون ونحيبه.

وهكذا استعان الفقهاء والزهاد بأنواع التصوير المختلفة ، كما نراهم " يستلهمون في كثير من جوانبها آي الذكر الحكيم كما يستلهمونها في أكثر

معانيهم ، وقد جعلهم حديثهم عن الثواب والعقاب والجنة والنار والطاعة والعصيان والحياة والموت والإيمان والكفر أن يقيموا كلامهم على الطباق والمقابلة"(١) .

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٩١ .

المصادر والمراجع

١ ـ إحياء علوم الدين ، للإمام أبى حامد محمد الغزالى (الجزء الأول) . تحقيق / أبى حفص سيد إبراهيم ـ دار الحديث ـ القاهرة ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م .

٢ ـ أخلاق العلماء ، لأبى بكر الحسين بن عبد الله الآجرى ـ دار الكاتب العربى (ب . ت) .

٣ ـ أدب الاختلاف فى الإسلام ـ د/ طه جابر فياض العلوانى ـ الدار العالمية للكتاب الإسلامى ـ الرياض ـ الطبعة الثالثة ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م .

٤ ـ الأدب الكبير ، لابن المقفع ـ تحقيق الأستاذ / أحمد زكى باشا ، دار ابن حزم ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م .

٥ ـ أسرار البلاغة ، للإمام القاهر الجرجانى ـ تحقيق / محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدنى بالقاهرة ودار المدنى بجدة ـ الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .

٦ ـ الأسلوب ـ أحمد الشايب ـ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ـ الطبعة الثامنة ١٩٨٨ م .

٧ ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين ، تأليف أبى عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ شرح / محمد عبد السلام إبراهيم ـ (الجزء الثالث) ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ١٤١٧ هـ = ١٩٩٦ م .

٨ ـ الأمالى ، لأبى على القالى ـ مراجعة لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م .

٩ ـ الإمام الزهرى عالم الحجاز والشام ـ محمد محمد حسن شراب ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى.١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م .

١٠ ـ الإمام سفيان بن سعيد الثورى سيد الحفاظ ـ د / عصام محمد الحاج على ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م .

١١ ـ الأوائل ، لأبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م .

١٢ ـ البحث العلمى عند المسلمين بين ميسرات الماضى ومعوقات الحاضر د / محمد عبد الحليم مرسى ـ دار عالم الكتب ـ الرياض الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .

١٣ ـ البيان والتبيين ، تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ تحقيق وشرح / حسن السندوبى ـ قدم له : مصطفى القصاص ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م .

١٤ ـ جمهرة خطب العرب ـ أحمد زكى صفوت ـ المكتبة العلمية ـ بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م .

١٥ ـ جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهية ـ أحمد زكى صفوت ـ المكتبة العلمية بيروت لبنان .

١٦ ـ جهود علماء الأندلس فى الصراع مع النصارى خلال عصرى المرابطين والموحدين (٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ـ ٦٤٠ هـ ١٢٤٢ م) ـ د / محمد بن إبراهيم بن صالح أبا الخيل ـ دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م .

١٧ ـ الحسن البصرى إمام أهل البصرة ـ الشيخ / كامل محمد عويضة ـ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥ م .

١٨ ـ حلية طالب العلم ، بقلم : بكر عبد الله أبوزيد ـ دار ابن الجوزى للنشر والتوزيع ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .

١٩ ـ ابن حنبل (حياته وعصره وآراؤه وفقهه) . الإمام محمد أبوزهرة ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م .

٢٠ ـ أبوحنيفة (حياته وعصره وآراؤه وفقهه) الإمام / محمد أبوزهرة ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٩٧ م .

٢١ ـ أبوحنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ـ عبد الحليم الجندى ـ المكتبة النموذجية بالقاهرة ١٩٧٠ م .

٢٢ ـ الخراج ، للقاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم .

٢٣ ـ الخليفة عمر بن عبد العزيز والشعر ـ د / عبد الحميد المعينى ـ مطبوعات نادى أبها الأدبى ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

٢٤ ـ الذهب المسبوك فى وعظ الملوك ، تأليف أبى عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى المتوفى (٤٨٨ هـ) ـ حققه / أبوعبد الرحمن بن عقيل الظاهرى ، د / عبد الحليم عويس ـ عالم الكتب ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .

٢٥ ـ رسائل الإصلاح ـ الشيخ / محمد الخضر حسين ـ المطبعة التعاونية بدمشق . ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م .

٢٦ ـ رسائل الخليل بقلم عدنان مردم بك ـ مؤسسة الرسالة بيروت ـ الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .

٢٧ ـ السخرية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ـ د / نعمان محمد أمين طه ـ دار التوفيقية للطباعة والأزهر ـ مصر ـ الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨م .

٢٨ ـ الشافعى (حياته وعصره وآرؤه وفقهه) الإمام محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م .

٢٩ ـ العفو والاعتذار ، لأبى الحسن محمد بن عمران العبدى المعروف بالرقام البصرى صاحبه ابن دريد ـ تحقيق د / عبد القدوس أبو صالح ـ دار البشير ـ عمان الأردن الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .

٣٠ ـ العقد الفريد ، لابن عبدربه الأندلسى ١ : ٣ تحقيق / د / أحمد يسرى العزباوى ـ دار الإمام على للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٢٢ م .

٣١ ـ العلماء الذين لم يتجاوزوا سن الأشد ـ على بن محمد العمران ـ دار العاصمة للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .

٣٢ ـ عيون الأخبار ـ تأليف أبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ـ تحقيق / د . محمد مفيد قميحة ـ دار الكتب العلمية ـ ببروت لبنان ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .

٣٣ ـ الفتوى والقضاء أمانة ونزاهة وتقوى ـ الشيخ / خضر العبيدى ـ دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م .

٣٤ ـ فضل علم السلف على الخلف ، للحافظ أبى الفرج زين الدين عبد الرحمن بن الشيخ أحمد بن رجب الحنبلى ـ تحقيق / بشير محمد عيون ـ مكتبة دار البيان ـ دمشق ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .

٣٥ ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى ـ د / شوقى ضيف ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الحادية عشرة ١٩٩٠ م .

٣٦ ـ القصاص والمذكرين ، للحافظ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى القرشى البغدادى (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق / محمد السعيد بسيونى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

٣٧ ـ مالك بن أنس إمام دار الهجرة ـ عبد الحليم الجندى ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م .

٣٨ ـ مالك (حياته وعصره آراؤه الفقهية) ـ الإمام محمد أبوزهرة ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الثانية ١٩٥٢ م .

٣٩ ـ المدخل إلى الثقافة الإسلامية ـ د / محمد رشاد سالم ـ دار القلم الكويت ـ الطبعة السادسة ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .

٤٠ ـ مسألة الاحتجاج بالشافعى فيما أسند إليه والرد على الطاعنين بعظم جهلهم عليه ، الخطيب البغدادى تحقيق :
خليل إبراهيم ملا خاطر ـ شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ١٤٠٠هـ =١٩٨٠م .

٤١ ـ المكتبات فى الإسلام ـ نشأتها وتطورها ومصادرها ـ د / محمد ماهر حمادة ـ مؤسسة الرسالة بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م .

٤٢ ـ مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، للحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق د / عبد الله بن عبد المحسن التركى ـ هجر للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م .

٤٣ ـ النثر الفنى بين صدر الإسلام والعصر الأموى ـ د / مى يوسف خليف ـ دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة .

٤٤ ـ النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ـ د / زكى مبارك ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٥ م .

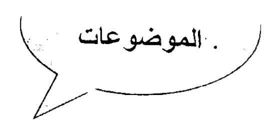
٤٥ ـ نظام الحسبة فى العراق حتى عصر المأمون (نشأته وتطوره) ـ رشاد عباس معتوق الناشر : دار تهامة بجدة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .

٤٦ ـ نظرات فى الأدب ـ أبو الحسن الندوى ـ دار البشير للنشر والتوزيع ـ عمان الأردن ـ الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م .

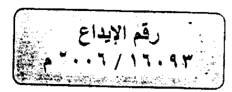
٤٧ ـ هارون الرشيدأمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا ـ د / شوقى أبو خليل دار الفكر بدمشق ـ الطبعة الرابعة ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م .

٤٨ ـ الوصايا فى الأدب العربى القديم ـ د / سهام الفريح ـ مكتبة المعلا الكويت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م .

٤٩ ـ وصية الشيخ الفقيه الحافظ أبى الوليد الباجى الأندلس ـ تحقيق / عبد اللطيف بن محمد الجيلانى ـ مكتبة أضواء السلف ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٩١ هـ = ١٩٩٨ م .



الموضوع	الصفحة


رقم الإيداع
٢٠٠٦/١٦٠٩٣م